مركز دراسات الآباء

المقالة الثانية

ضد الآريوسيين

الشهادة لالوهية المسيح

للقديس أثناسيوس الرسولى

WWW.CHRISTPAL.COM

تعريب

المرحوم الأستاذ
صموئيل كامل عبد السيد

الدكتور
نصحى عبد الشهيد

اكتوبر 1987

اسم الكتاب : "المقالة الثانية ضد الآريوسيين" (الشهادة لألوهية المسيح)

اسم المؤلف: القديس أثناسيوس الرسولى

إسم المعرب: الأستاذ صموئيل كامل والدكتور نصحى عبد الشهيد

اسم الناشر : مؤسسة القديس انطونيوس

8 شارع إسماعيل الفلكى – ميدان المحكمة مصر الجديدة

ت : 2414023

الطباعة : المركز المصرى للطباعة

54 تقسيم رئاسة الجمهورية – الزيتون

ت : 4544946

رقم الإيداع: 5655 / 87

الترقيم الدولى : **1 – 01 – 1385 - 977**

مقـــدمـــة

يواصل القديس أثناسيوس فى هذه المقالة الثانية ضد الأريوسيين "شرح النصوص التى كـــان الأريوسيون يستخدمونها للطعن فى ألوهية المسيح، مدافعاً عن ألوهية المسيح وشاهداً لهـــا خــــلال الشرح والتحليل الدقيق لهذه النصوص من الكتاب المقدس. وننبه ذهن القارئ أن القديس أثناســـيوس يستخدم الترجمةالسبعينية فى نصوص العهد القديم وهى الترجمة اليونانية لأســـفار العهـــد القـــديم (ترجمت فى القرن الثالث قبل الميلاد) التى كان يستعملها كل الآباء فى العـــصور الأولـــى كمـــا أن كتاب العهد الجديد أنفسهم فى أقتباساتهم من العهد القديم يستخدمون النسخة السبعينية – وهذه النسخة السبعينية اليونانية للعهد القديم هى التى كانت مستعملة عند الجميع فى العصور الأولـــى بمـــا فـــيهم الأريوسيين وجميع المبتدعين. ونلاحظ بعض الأختلاف بين هذه النسخة السبعينية وبـــين النـــسخة المستعملة الآن للعهد القديم وهىالمعربة عن اللغة العبرانية. نذكر ذلك لأن أحد النـــصوص التـــى يشرحها القديس أثناسيوس هنا هو أمثال 22:8 "الرب خلقنى أول طرقه لأجل أعماله"، يشغل معظم مساحة هذه "المقالة الثانية".

ويرجع الفضل الأساسى فى تعريب هذه "المقالة الثانية" من اللغة اليونانية القديمة إلى الأســـتاذ صموئيل كامل عبد السيد، استاذ اللغة اليونانية الذى أشتركت معه فى عمـــل الترجمـــة، وبعـــد أن أنتهينا من ترجمة "المقالة الثانية" فى سبتمبر 1986م، توفى فى 7 نـــوفمبر 1986م وكـــان يأمـــل رحمه الله أن يمتد به العمر إلى أن ينتهى من ترجمة المقالات الأربعة ضد الأريوســـيين. ولمناســـبة إنتقاله قبل صدور المقالة الثانية من المطبعة نذكر نبذة تاريخية عن دور الاستاذ صـــموئيل وفـــضله بالنسبة لمشروع ترجمة كتابات الآباء عن اليونانية.

الاستاذ صموئيل كامل ومركز دراسات الآباء

لما عرف الاستاذ صموئيل أهمية كتابات الآباء الموجودة باللغة اليونانية أبدى استعداده الحار والجاد للعمل فى ترجمة ما يستطيع منها إلى العربية. وبدأ بالترجمة فعلاً، فترجم أولاً بعض رســـائل القديس أثناسيوس عن تجسد المسيح. وصدرت بعنوان "المسيح فى رسائل القديس أثناســـيوس" فـــى

ديسمبر 1981 ثم بدأ فى ترجمة "المقالات الأربعة ضد الأريوسيين" التى صدرت "المقالة الأولـــى" منها فى ديسمبر 1984، عن مركز دراسات الآباء وبعدها هذه "المقالة الثانية".

ولكن الأستاذ صموئيل لم يكتف بأن يترجم بنفسه فقط بل كانت عنده قناعة تامة أنه لابد مـــن إعداد جيل من الدارسين الشباب الذين يتخصصون فى كتابات الآباء ويتمكنون من اللغـــة اليونانيـــة لهذا الغرض. وبينما كنا نجلس معاً نفكر فى هذا المشروع وكيفية تحقيقه، قال لى الاستاذ صـــموئيل "تعال بنا نذهب معاً لنقابل الملحق الثقافى بالسفارة اليونانية بالقاهرة فأنا أعرفه ويمكن أن يرشد إلـــى طريقة يمكن بها إيفاد مبعوثين لليونان لدراسة اللغة اليونانية وكتابات الآبا. كان هذا فى بدايـــة ســـنة 1980. وفعلاً قمنا بزيارة الملحق الثقافى. وعن طريق الإرشادات التى أعطاها لنا الملحق الثقـــافى اليونانى توصلنا إلى أول خطوات تأسيس "مركز دراسات الآباء" لنشر ودراسة كتابات الآباء، ففـــى شهر سبتمبر 1980 سافر أول مبعوث إلى بلاد اليونان للدراسة، (وتبعه عدة مبعوثين فى الـــسنوات التالية) وتطوع الاستاذ صموئيل لإعطاء دروس تمهيدية فى اللغة اليونانية لكل مبعوث قبل سفره.

أن مركز دراسات الآباء خسر ركناً أساسياً بوفاة الاستاذ صموئيل. ولكـــن لنـــا رجـــاء فـــى المسيح، أن هذا العمل الذى بدأه الاستاذ صموئيل كامل يكمله تلاميذه المبعوثين للدراسة من مركـــز دراسات الآباء.

ولإلهنا القدير الآب والابن والروح القدس كل مجد وسجود وتسبيح الآن وإلى كـــل الـــدهور. آمين.

بيت التكريس لخدمة الكرازة — **دكتور**

فى 11 سبتمبر 1987 — **نصحى عبد الشهيد**

أول توت 1704

عيد النيروز

المحتويات

الفصل الرابع عشر

شرح نصوص: رابعاً : عب 2:3
"كونه أميناً للذى أقامه"

1- كنت أحسب أن أولئك المنافقين، مجانين الآريوسية، سيقنعون بالأدلة السابقة والتى سبق أن سقتها ضدهم. وأنهم سيكتفون بالبراهين المتعلقة بالحقيقة، وأنهم عندئذ سيكفون عن الحديث ويندمون عن كل فكر ردئ أو كلام شرير تحدثوا به عن المخلص. إلا أننى لا أدرى كيف أنهم لم يخجلوا، بل هم يتمرغون فى الوحل كالخنازير ويلعقون قيأهم كالكلاب، بل وأكثر من هذا فقد أخترعوا لأنفسهم بدعاً للكفر وعدم التقوى.

إذن فلأنهم لم يفهموا حتى ما كتب فى الأمثال: "الرب أقامنى أول طرقه لأجل أعماله"[1]، ولا حتى ما قيل بواسطة الرسول "كونه أميناً للذى أقامه"[2]، لذلك فهم يتجادلون بلا داع قائلين أن ابن الله هو "مصنوع"، و "مخلوق". وكان يكفيهم استيعاب الأمور وإدراكها مما سبق أن قلناه، ذلك إن لم يكونوا قد فقدوا عقلهم تماماً. لأن الحق يشهد أن الإبن لم يوجد من عدم، وهو لا ينتمى مطلقاً إلى الأشياء المخلوقة لأنه حيث أن الابن هو إله، فلا يمكن أن يكون مصنوعاً. وليس من الصواب أن يقول أحد عنه أنه مخلوق. فالمخلوقات والمصنوعات وحدها هى التى من المناسب أن يقال عنها أنها من "العدم" وأنها لم تكن موجودة قبل أن تنشأ".

لكى يبدو أنهم يخشون أن يتخلوا عن أساطيرهم المبتدعة، ولذلك فهم يتعللون على الدوام بالأقوال التى سبق ذكرها من الكتب الإلهية. ورغم أنها صحيحة، إلا أنهم يقومون بتحريف معناها. لذلك سوف نشرح مرة أخرى معنى الأقوال التى أوردناها لكى نذكر بها المؤمنين ونوضح لهم بواسطة كل قول من هذه الأقوال أن هؤلاء لا يعرفون المسيحية على الإطلاق. لأنهم لو كانوا يعرفونها لما أغلقوا على أنفسهم فى عدم الإيمان[3] كاليهود المعاصرين[4]. بل كانوا سيسألون فيخبرونهم أنه "فى البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله[5]. وهكذا بمشيئة الآب

---

(1) أم22:8.
(2) عب 2:3.
(3) أنظر رو32:11.
(4) يستعمل القديس أثناسيوس عبارة "اليهود المعاصرين" ليعبر بها عن الآريوسين: أنظر المقالة الأولى فصل 8 صفحة 21، فصل 10 صفحة 24.
(5) يو 1:1.

صار الكلمة نفسه انساناً، وهذا ما قاله عنه يوحنا بحق "أن الكلمة صار جسداً"[6]. وما قالــه بطــرس "جعله رباً ومسيحاً"[7]. والرب نفسه يتكلم على لسان سليمان ويقول: "الرب أقامنى أول طرقه لأجــل أعماله"[8]. وبولس يقول "بهذا المقدار صار أعظم من الملائكة"[9] وأيضاً "أخلى نفسه آخذاً صــورة عبد"[10] ومرة أخرى "ومن ثم أيها الأخوة القديسون شركاء الدعوة السماوية تأملوا رسول ورئــيس كهنة اعترافنا، يسوع، حال كونه أميناً للذى أقامه"[11] لأن كل هذه الأقوال لها قوتهــا الذاتيــة ولهــا مضمونها الذى يقود إلى التقوى ويظهر ألوهية الكلمة، وأن ما قيل عنه بحسب بشريته قد قيل بــسبب أن الكلمة صار أيضاً ابن الانسان.

ولكن رغم أن هذه الأمور كافية من تلقاء ذاتها لدحض أى اعتراض، إلا أنهــم نظــراً لعــدم فهمهم لقول الرسول يعتقدون أن كلمة الله هو واحد من المخلوقات وذلك بسبب ما هو مكتوب "كونــه أميناً للذى اقامه". لهذا رأيت أنه من الضرورى أن أواصل هذا الكلام كى أخجلهــم بمثــل كلامــى السابق مستمداً مادة النقاش من أقوالهم نفسها.

2- فلو لم يكن هو الابن، لأمكن أن يسمى "مخلوقاً"، وكل ما ينسب إلى المخلوقات سينــسب إليه، ولن يلقب وحده "ابناً" ولا "كلمة" ولا "حكمة" ولن يلقب الله أيضاً "بالآب"، بــل فقــط "بالخــالق" و"البارى" للأشياء "الصائرة" بواسطته. وستكون الخليقة هى صورة وملامح إرادته الخلاقة. ووفقــاً لتعاليمهم فهو ذاته (الآب) لن تكون طبيعته مثمرة. وبذلك لن يكون لجوهره الــذاتى أى "كلمــة" ولا "حكمة" و"صورة" إطلاقاً. فلو لم يكن هو "ابناً" فلن يكون "صورة". ولكن لو لم يكــن هنــاك وجــود للابن فكيف يمكن أن تقولو إذن أن الله خالق؟ فالمخلوقات إنما قد خلقت قطعــاً بواســطة "الكلمــة" و"الحكمة". وبغير الكلمة لما كان ممكناً أن يوجد أى شئ. والآب كما يقولون عنده الكلمة الــذى فيــه وبواسطته يخلق كل شئ وإلا لكان الجوهر ليس خصباً بل عقيماً ومجدياً حــسب رأيهــم –كــالنور الذى لا يضئ وكالنبع الجاف، فكيف لا يخجلون عندما يقولون أن الله لديه طاقة خلاقــة؟ وكيــف لا يحمّرون خجلاً وهم ينكرون الذى هو بحسب الطبيعة ويريدون أن يجعلوا الــذى بحــسب المــشيئة متقدماً عليه؟

---

(6) يو14:1.
(7) أع 36:2.
(8) أم22:8.
(9) عب 4:1.
(10) فى 7:2.
(11) عب 1:3،2.

فإن كانت الأشياء التى هى معه خارج جوهر الله والتى لم تكن موجودة من قبل – قد خلقها عندما شاء أن يجلبها إلى الوجود، وأصبح هو خالقها وصانعها، لكان هو – قبل ذلك بكثير – أباً لمولود من جوهره الذاتى. لأنهم إن كانوا ينسبون لله أنه بالمشيئة يُوجد الأشياء غير الموجودة، فلما لا يقرون بأن فى الله شئ أعلى من المشيئة، ألا وهو الطبيعة الخصبة، وأن يكون أباً لكلمته الذاتى؟ وعلى ذلك فإن كان الاول الذى هو بحسب الطبيعة لم يكن موجوداً بحسب جنون أولئك، فكيف يمكن أن يوجد الثانى، الذى هو بحسب المشيئة؟ لأن الكلمة هو الأول، والخليقة هى الثانية. فالكلمة كائن موجود مهما تجاسر الكافرون وتمادوا فى أفكارهم، وذلك لأن الخليقة قد صارت إلى الوجود بواسطته. فمن الواضح أنه إن كان الله هو الصانع، فعنده أيضاً كلمته الخلاقة الذى هو ليس من خارجه بل من ذاته هو نفسه، وهذا ما ينبغى أن نكرره كثيراً، فإن كان الله لديه المشيئة، وكانت المشيئة مبدعة كافية لإيجاد الأشياء المخلوقة، فإن كلمته أيضاً يكون مبدعاً وخالقاً. ومما لا شك فيه أن الكلمة ذاته هو مشيئة الآب الحية، وقوته الجوهرية، وهو الكلمة الحقيقى الذى به تتكون جميع الأشياء وهو يضبطها جيداً. ولن يتردد أحد فى القول بأن ذلك الذى يُنظم، هو سابق على التنظيم نفسه، وعلى الأشياء المُنظمة. وكما سبق أن قلنا، يكون عمل الله كخالق هو تالٍ لكونه أب. لأن الابن هو خاصته وهو حقاً من تلك الغبطة، والجوهر الكائن دائماً. أما الأشياء المنظمة فقد صارت إلى الوجود من مشيئته الذاتية، من خارجه وقد خلقت بواسطة ابنه الذى من ذات جوهره.

3- إذن فيما أن الحديث يوضح السخف الشديد للقائلين بأن الرب ليس هو ابن الله – بل هو مخلوق، لذلك فمن الضرورى أن نعترف نحن بأن الرب هو الإبن. وإن كان هو ابن – كما هو هكذا بالحقيقة – فالابن يجب أن يُعتَرف به أنه ليس من خارج أبيه بل هو الذى ولده، لذا يلزم – كما سبق أن قلنا – أن يكفوا عن تحوير الأقوال التى يستعملها القديسون بخصوص الكلمة نفسه. فإنهم يستخدمون عبارة "الذى أقامه" بدلاً من "الذى ولده"، فإن هذا اللفظ ليس له علاقة بهذا الأمر طالما أن الابن قد اعتُرف به أنه من طبيعة أبيه. فليست الألفاظ هى التى تقلل من قدر طبيعة الأشياء، بل بالأحرى فإن طبيعة الأشياء هى التى تضفى المعنى على الألفاظ وغيرها.

لأن الألفاظ ليست سابقة على جواهر الأشياء بل أن الجواهر هى الأولى والألفاظ تأتى تالية لها. ولذلك فعندما يكون الجوهر "مصنوعاً" أو "مخلوقاً"، عندئذ فأن الألفاظ: "صنع" و"صار" و"خلق" تقال عنه بصفة خاصة ويقصد بها أنه "مصنوع". ولكن حينما يكون الجوهر مولوداً وابناً، عندئذ فإنألفاظ "صنع" و"صار" و"خلق" لا تستخدم بحسب مفهومها الحرفى، ولا تعنى أنه "مصنوع" بل تكون كلمة "صنع" قد استخدمت بدلاً من "ولد" بدون تحديد. وفى أحيان كثيرة يلقب الآباء ابناءهم

الذين ينجبونهم عبيداً لهم، دون أن ينكروا أصالة طبيعتهم. وأحياناً يجاملون عبيدهم ويسمونهم أبناء دون أن يفقدوا حق امتلاكهم لهم منذ البداية. إلا أنهم فى الحالة الأولى يسمون ابنـاءهم عبيـداً مـن خلال سلطانهم كآباء، وفى الحالة الثانية يسمون عبيدهم أبناء بدوافع إنسانية. فسارة كانـت تـدعو إبراهيم سيداً[12] رغم أنها لم تكن عبدة له، بل كانت زوجة. وكان الرسول يصف أونسيموس العبـد كأخ لفليمون الذى كان "سيداً"[13]، أما بشبع فرغم كونها أماً دعت إبنها عبداً قائلـة لأبيـه: "عبـدك سليمان"[14]. وكذلك ناثان النبى أيضاً بعد أن وصل قال لداود نفس كلامها بأن "سليمان عبـدك"[15]. إنهم لم يبالوا أن يقولوا عن الابن أنه "عبد"، لأن داود الذى سمع هذا القول كـان يعـرف طبيعـة سليمان. وهم أيضاً بقولهم هذا لم يكونوا يجهلون إصالة سليمان. وكانوا يطالبون أن يكـون وارثـاً لأبيه، رغم أنهم كانوا يلقبونه عبداً، إذ كان هو ابناً لداود بالطبيعة

4- لذلك حينما نقرأ هذه الأقوال ونتمعن فيها جيداً، وعندما نسمع أن سليمان عبد، فلا يجـب أن نظن أ،ه كان عبد، بل هو ابن طبيعى وأصيل. وهكذا أيضاً فى حالة المخلص المعترف به حقـاً أنه ابن، لكونه هو الكلمة بالطبيعة فعندما يقول القديسون عنه. "كونه أميناً للذى أقامه"[16] أو عنـدما يقول هو نفسه عن ذاته "الرب قنانى"[17] وأيضاً: "أنا عبدك وابن أمتك"[18].

ومثل هذه الأقوال كثير، فإن هذا لا يجب أن يجعل البعض ينكر اصالته من الآب، بـل كمـا حدث فى حالة سليمان وداود، هكذا فلنتأمل بإستقامة فيما يخص الآب والابن. فـإن كـانوا عنـدما يسمعون أن سليمان عبد يعترفون به ابناً، أليس من العدل أن يلحقهم الدمار مرات كثيـرة لأنهـم لا يحفظون للرب نفس اللقب؟! ولكنهم حينما يسمعون الكلمات "ابن"، و"كلمة"، و"حكمة" يسارعون إلـى تحريف وإنكار البنوة الأصلية التى بالطبيعة أعنى بنوه الابن من الآب. وعندما يسمعون كلمـات أو أقوالاً تخص ما هو مخلوق ففى الحال يتعجلون الظن أن "الابن" مخلوق بالطبيعة، وينكرون "الكلمة" رغم أنه فى استطاعتهم أن ينسبوا مثل تلك الأقوال كلها إلى بشريته – حيث أن الكلمة صار انـساناً،

---

[12] **1 بط6:3**.
[13] **فليمون 16**.
[14] **1مل19،16:1**.
[15] **1مل26:1**.
[16] **عب 2:3**.
[17] **أم 22:8**.
[18] **مز 16:116**.

فكيف لا يكون هؤلاء مكروهين لدى الرب. طالما أنهم هم أنفسهم يقيسون الأمــور بمعيــارين[19]: بأحدهما يقيسون الأمور الأولى وبالآخر يجدفون على الرب؟ بالواحد يفهمون كلمــة عبــد حــسب هواهم، وبالأخرى يركزون على كلمة "الصانع"[20] كسند قوى لهرطقتهم. وهذا السند يكــون كعلــم محطم بالنسبة لهم. وذلك لأنه سيدينون أنفسهم لو عرفوا أسلوب الكتاب. فقد دُعِيَ ســليمان "عبــداً" رغم كونه "إبناً". كذلك أيضاً – ونكرر القول – قد يقول الآباء عن أبنــائهم الــذين أنجبــوهم أنهــم مخلوقون ومصنوعون وصائرون. فقد قال حزقيا وهو يصلى: "لأنه من هذا اليوم سأصــنع أبنــاء يعلنون: يا إله خلاصى"[21]. فهو يقول "سأصنع" فى حين أن النبى ف نفس السفر وفى سفر الملــوك الرابع[22] يقول هكذا "وأبناؤك الذين يخرجون منك"[23] فهو يستعمل كلمة "سأصنع" بدلاً مــن كلمــة "سألد"، ويقول عن المولودين منه أنهم مصنوعون، ولكن لا يشك أحد أن هذا اللفــظ إنمــا يخــص الميلاد بالطبيعة.

وعندما ولدت حواء قايين قالت "إقتنيت رجلاً من عند الرب"[24]. إذن فقد قالت "اقتنيت" بــدلاً من "ولدت"، لأنها بعد أن رأت الطفل قالت إنها "إقتنت". ولا يظن أحد أنها بسبب قولها "اقتنيت" أنهــا اشترت قايين من الخارج، أو أنها لم تلده من بطنها. ويعقوب البطريرك قــال ليوســف "والآن إذن ابناك الولدان اللذان ولدا لك فى مصر قبل مجيئى إليك فى مصر هما لــى: افــرايم ومنــسى"[25]. ويقول الكتاب عن أيوب "وصار له سبعى أبناء وثلاث بنات"[26]، مثلما قــال موســى أيــضاً فــى الشريعة "إن صار لأحد أبناء"، إن "صنع ولداً"[27].

5- هوذا مرة أخرى يقال عن المولودين أنهم "صائرون" و "مــصنوعون"، إذ طالمــا أننــا نعترف أنهم أبناء فالأمر لا يختلف إن قال أحد أنهم قد صاروا سواء قيل "اقتنيــت" أم "صــنعت" لأن الطبيعة والحق يجعلان المعنى قريباً منهما.

---

(19) أنظر أم 23:20.

(20) يقول الأريوسيين عن المسيح أنه "الصانع".

(21) أش 19:28و20 (سبعينية).

(22) وهو سفر الملوك الثانى فى ترجمة دار الكتاب المقدس.

(23) 2 مل 18:20.

(24) تك 1:4.

(25) تك 5:48.

(26) أيوب 2:1.

(27) انظر خر4:21 (سبعينية).

ولهذا فبالنسبة لهؤلاء الذين يتساءلون إن كان الرب مخلوقاً أو "مصنوعاً" فينبغى عليهم أولاً أن يبحثوا إن كان هو "ابناً"، و "كلمة"، و"حكمة" لأنه عندما تثبت هذه الأمور، فإن الظن بخصوص "المصنوع" و"المخلوق" سيتوقف ويطرح خارجاً فى الحال. لأن "المصنوع" لا يمكن أن يكون "إبناً" و"كلمة"، ولا الابن يمكن أن يكون "مصنوعاً". فإن كانت الأمور تجرى هكذا فيكون البرهان واضحاً للجميع أن العبارة التى تقول "للذى أقامته"، و"الذى صنعه" لا تخدم هرطقتهم بل بالحرى تدينهم. لأنه قد أتضح أن تعبير "صنع" قد استخدم فى الكتب الإلهية عن الأطفال الأصلين بالطبيعة. ومن ثم فإذ قد تبرهن أن الرب هو الابن الأصيل للآب بالطبيعة وهو كلمته وحكمته فإنه حتى إذا قيل بخصوصه "صنع" أو "صار" فلا يقال عنه هذا كما لو كان كائناً مصنوعاً. إن القديسين استخدموا التعبير بلا تمييز – مثلما حدث بالنسبة لسليمان وأبناء حزقيا – لأنه مع أن هؤلاء الأبناء ولدوا من آبائهم أنفسهم، فقد كتب عنهم: قد "صنعت"، و"خلقت"، و"صار". إذن فإن أعداء الله الذين يتعللون كثيراً بمثل هذه العبارات هم ملزمون الآن بعد هذا الذى قيل – أن يتخلوا عما يتشدقون به من أفكار تجديفهم، وبهذا يعتقدون – بخصوص الرب – أنه ابن حقيقى – وكلمة الآب وحكمته، وأنه ليس مصنوعاً أو مخلوقاً لأنه إن كان الابن مصنوعاً، فأية علة، وأية حكمة إذن هى التى أوجدته؟ لأن كل المخلوقات قد صارت بواسطة الكلمة والحكمة، كما قد كُتب "كلها بحكمة صنعت"[28] وأيضاً "كل شئ به كان، وبغيره لم يكن شئ مما كان"[29]. فإن كان هو الكلمة والحكمة الذى به قد صار كل شئ، فينتج من ذلك أنه لا ينتمى إلى الأشياء المصنوعة ولا إلى الأشياء المخلوقة إطلاقاً، ولكنه هو مولود الآب.

6- تأملوا إذن إلى أى انحطاط وصل قولهم عن كلمة الله أنه مصنوع. فسليمان يقول فى موضع ما فى سفر الجامعة: "لأن الله سيحضر كل عمل إلى الدينونة بكل خفاياه، إن كان خيراً أو شراً"[30]. وهكذا فإن كان الكلمة مصنوعاً أو مخلوقاً، فإن وفقاً لكلامهم، سيقدم هو أيضاً كغيره للدينونة. فأين تكون الدينونة إذن، إن كان الديان نفسه يدان؟ ومن هو الذى سيعطى البركات للأبرار والعقوبات لغير المستحقين، عندما يقف الرب نفسه – حسبما تقولون – ليدان مع الجميع. فأية شريعة سيدان واضع الشريعة نفسه؟ فإن من خصائص المخلوقات أنها تدان أى تُثاب أو تُعاقب بواسطة الابن.

---

(28) مز 24:104.
(29) يو 3:1.
(30) جا 14:11.

إذن، خافوا الديان، وافهموا ما سبق أن قاله سليمان. لأنه إن كان الله سيحضر كل عمل إلـــى الدينونة، إلا أن الابن ليس من بين المُدانين، بل هو بالأحرى الديان لكل المخلوقـــات. أفـــلا يكـــون واضحاً أكثر من الشمس أن الابن ليس مخلوقاً بل هو كلمة الآب، والذى به تصير المخلوقـــات وبـــه تُدان؟ وإن كانت عبارة: "كونه أميناً" (عب 2:3) تثيرهم من جديد ظانين أن لفظة "الابن" يقال عنـــه كما يقال عن جميع الناس، وأنه، لأجل أمانته، فهو ينتظر أجر أمانته. إذن حـــان الوقـــت ليتهمـــوا موسى من جديد، لأنه قال "الله أمين وحق"[31]. ويتهموا بولس الذى كتب "ولكن الله أمـــين، الـــذى لا يدعكم تجربون فوق ما تستطيعون"[32]. فالقديسون عندما يقولون هذا فإنهم لا ينسبون لله خـــصائص بشرية، بل يعترفون أن كلمة "أمين" فى الكتاب المقدس له معنيـــان: المعنـــى الأول أنـــه "مـــؤمن"، والآخر أنه أمين. فالمعنى الأول يناسب البشر، والثانى يناسب الله. إذن فإبراهيم "مؤمن" لأنه قد آمن بالله، أما الله فهو أمين مثلما يرنم داود: "أمين هو الرب فى كل أقواله[33]. وهـــو أمـــين لأنـــه مـــن المستحيل أن يكون الرب كاذباً.

"إن كان لمؤمن أو مؤمنة أرامل"[34] فإنها تدعى مؤمنة بسبب استقامتها وأيضاً "أمينـــة هـــى الكلمة"[35] لأن ما قاله يستوجب الإيمان، لأنه حق، ولا يمكن أن يكون غير ذلك.

إذاً فعبارة "كونه أمينا للذى أقامه"، لا تدل على أنه يشابه الآخرين ولا تعنى أنه لكونه أميناً قـــد صار مقبولاً، بل إذ هو ابن الله الحق فهو أيضاً أمين، ويجب أن يوثق به فيما يقـــول وفيمـــا يعمـــل. وهو نفس ظل ثابتاً دون أن يتغير فى تدبير تجسده وحضوره بالجسد.

7- هكذا إذن فإن من يواجه وقاحتهم يستطيع حتى من لفظ "صـــنع" (أقـــام)[36] أن يـــدحض هؤلاء المضللين الذين يحسبون أن كلمة الله مصنوع أو مخلوق، وحيث أن القصد من هذا اللفظ هـــو قصد مستقيم، إذ أنه يوضح الوقت والمناسبة التى قيل فيها، فإنه بالضرورة يتضح من هـــذا اللفـــظ عدم تبصر الهراطقة لا سيما إذا أخذنا فى الإعتبار وقت كتابته والحاجة إليه، كما سبق أن قلنا، فـــإن الرسول لم يقل هذه الأقوال لكى يسرد بالتفصيل ماذا كان قبل الخليقة، ولكنه يتحـــدث عـــن الوقـــت الذى فيه: صار الكلمة جسداً، لأنه كتب هكذا" : "لذا أيها الأخوة القديسون شركاء الدعوة الـــسماوية،

---

[31] أنظر تث 4:32.
[32] 1كو13:10.
[33] مز 3:144 (سبعينية).
[34] 1تيمو 16:5.
[35] تى 8:3.
[36] أنظر عب 2:3.

تأملوا يسوع رسول ورئيس كهنة اعترافنا كونه اميناً للذى أقامه (صنعه)"[37]. فمتى صار رسولاً إذن؟ ومتى صار رئيس كهنة اعترافنا؟ وبعدما بذل نفسه لأجلنا، متى أقام الجسد من بين الأموات؟ ومتى جاء بهؤلاء الذين يتقدمون إليه بالإيمان ويقدمهم إلى الآب بعد أن يحررهم مكفراً عنهم جميعاً أمام الله؟[38]. فالرسول حينما قال "كونه أمينا للذى أقامه" لم يكن يشير إلى جوهر الكلمة ولا إلى ميلاده الطبيعى من الآب، حاشا، لأن الكلمة هو الذى يصنع وليس هو المصنوع. ولكنه قال هذا لأنه أراد أن يظهر نزوله إلى البشر، ووظيفة رئاسة الكهنوت التى "صارت". وهو ما يمكن لأى شخص أن يراه بوضوح من التاريخ الذى كتب عن الشريعة وعن هارون. فإن هارون لم يولد رئيس كهنة بل ولد إنساناً – ثم بعد فترة، عندما أراد الله – صار رئيس كهنة. وهو لم يصر هكذا ببساطة، ولم يعرف من ملابسه العادية ولكن عندما أرتدى القميص، والصدرة، وجبة الرداء وهى الثياب التى صنعتها النساء بحسب أمر الله. وبهذه الثياب كان يدخل إلى الأقداس ويقدم الذبيحة عن الشعب كما لو كان يتوسط بهذه الثياب بين رؤية الله وذبائح الناس[39].

وهكذا الرب أيضاً، فإنه "فى البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله"[40]. وعندما أراد الآب أن نقدم الفدية لأجل الجميع، وأن تعطى النعمة للكل، عندئذ فمثلما أرتدى هارون الجبة – أخذ هو جسداً من الأرض متخذاً له مريم أماً بالجسد كما من أرض بكر حتى إذ يكون له – كرئيس كهنة – شئ يقدمه، فهو يقدم نفسه للآب ويطهرنا جميعاً من الخطايا بدم نفسه ويقيمنا من بين الأموات.

8- وهذا الأمر كانت له ظلال فى القديم، فإن ما حققه المخلص فى مجيئه، هو الأمر الذى كان هارون رمزاً له بحسب الناموس. فلقد كان هارون هو هو نفسه. ولم يتغير بإرتدائه ثياب رئيس الكهنة، بل ظل كما هو إنما قد أرتدى الثياب فقط. فإن قال شخص ما عندما يراه وهو يقدم القرابين "ها هوذا هارون قد صار اليوم رئيس كهنة" فلا يعنى بذلك أنه قد صار عندئذ انساناً، إذ أنه كان إنساناً حتى قبل أن يصير رئيس كهنة، لكنه صار رئيس كهنة بسبب وظيفته متسربلاً بالثياب المصنوعة والمجهزة لوظيفة رئاسة الكهنوت. وبنفس الطريقة من الممكن أن يفكر أحد جيداً بخصوص الرب أنه لم يصر شخصاً آخر بعد أن أتخذ الجسد، بل ظل هو نفسه كما كان قبل أن

---

[37] عب 2،1:3.
[38] أنظر عب 17:2.
[39] أنظر خر28، 29.
[40] يو 1:1.

يتسربل بالجسد. وإن عبارة "قد صار" و "قد صُنع"، بل لكونه الكلمة فهو خالق، وفيمـــا بعـــد صـــار رئيس كهنة مرتدياً جسداً مصنوعاً ومخلوقاً. وهو الذى يستطيع أيضاً أن يقدم تقدمة لأجلنـــا، لـــذلك يطلق عليه أيضاً "أنه قد صُنع". فإن لم يكن السيد قد صار إنساناً، إذن فليحارب الآريوسيون. أما إن كان "الكلمة صار جسداً"[41] فماذا يكون من الواجب أن يقال عنه وقد صار إنساناً، إلا "كونـــه أمينـــاً للذى أقامه"[42]. لأنه كما هو لائق بالنسبة للكلمة أن يقال عنه "فى البدء كان الكلمة"[43]، فإنه ما يليق بالإنسان هو أن يولد وأن يخلق. فمن إذن يرى الرب وهو يمشى كإنسان – وقد ظهر من أعماله أنـــه إله – ولا يتساءل قائلاً: "من الذى صنع هذا إنساناً؟" ومن أيضاً لا يجيب على هذا السؤال بـــأن: "الله هو الذى صنعه إنساناً وأرسله إلينا كرئيس كهنة"؟ وهذا المعنى، وهذا الوقت، وهذا الشخص هو مـــا أوضحه الرسول نفسه الذى كتب: "كونه أميناً للذى أقامه (صنعه)". وهذا يتضح أكثر عندما نقرأ مـــا كتبه الرسول قبل هذه الكلمات. إذ أن تسلسل الفكر واحد. والفصل من الرسالة يـــشير إلـــى نفـــس الموضوع.

فهو يكتب فى رسالته إلى العبرانيين ما يلى: "فإذ قد تشارك الأولاد فى اللحم والدم اشترك هو نفسه أيضاً كذلك فيهما لكى يبيد بالموت ذاك الذى له سلطان الموت أى ابليس، ويعتق أولئك الـــذين خوفاً من الموت كانوا جميعاً كل أيام حياتهم تحت العبودية. لأنه حقاً ليس يمـــسك بالملائكـــة، بـــل يمسك نسل ابراهيم. ومن ثم كان ينبغى أن يشبه إخوته فى كل شئ، لكى يكون رحيماً ورئيس كهنـــة أميناً فيما لله، حتى يكفر عن خطايا الشعب. لأنه فيما هو قد تألم مجرباً يقدر أن يعين المجربين"[44]. وأيضاً "من ثم أيها الإخوة القديسون شركاء الدعوة السماوية، تأملوا يسوع رســـول ورئـــيس كهنـــة اعترافنا كونه أمينا للذى أقامه"[45].

9- فمن الذى يقرأ كل هذه الفقرة ولا يدين الآريوسيين، ولا يبدى إعجابه بالرسول المطـــوب لأنه قد تكلم بالصواب. لأنه متى "صُنع"، ومتى "صار" المسيح رسولاً إلا عندما اشترك هـــو نفـــسه "فى الدم واللحم" بطريقة مماثلة لنا؟ ومتى صار "رئيس كهنة أو رحيماً وأمينـــاً"، إلا عنـــدما صـــار "مشابهاً لإخوته فى كل شئ"؟ ولقد حدثت المشابهة عندما صار إنساناً لابساً جـــسدنا نحـــن. ولـــذلك

---

[41] يو 14:1.
[42] عب 2:3.
[43] يو 1:1.
[44] عب 14:2-18.
[45] عب 1:3،2.

فعندما يقول بولس "كونه أميناً للذى أقامه" فإنه يتحدث عن تدبير تجسد الكلمة وليس بخصوص جوهر الكلمة. إذن فلا يجب ، تتخدعوا فى القول أن كلمة الله مصنوع، لأنه بحسب الطبيعة هو ابن وحيد الجنس، ثم صار له "إخوة" عندما أرتدى جسداً شبيهاً لنا، والذى به بذلك ذاته بذاته وحده وسُمى "رئيس كهنة"، ودعى رحيماً وأميناً. فمن ناحية هو "رحيم" لأنه رحمنا إذ بذل نفسه عنا، ومن ناحية أخرى هو "أمين" ليس لأنه مشارك لنا فى الإيمان، وليس لأنه يؤمن بشخص ما مثلنا، بل لأنه هو الذى يجب أن نؤمن به فى كل ما يقوله وما يفعله. ولأنه قدم ذبيحة أمينة أبدية وليست زائلة. لأن الذبائح المقدمة بحسب الشريعة ليست أمينة، إذ أنها تقدم كل يوم. وهى أيضاً تحتاج إلى تطهير، أما ذبيحة المخلص فقد كانت مرة واحدة وأكلمت الكل وظلت أمينة لأنها باقية على الدوام.

ولقد كان لهارون خلفاء، وعموماً فإن رجال الكهنوت بحسب الشريعة يحلون محل سابقيهم بمرور الوقت أو بسبب الموت. أما الرب فله "كهنوت ثابت لا يزول"[46]. لقد صار رئيس كهنة أميناً باقياً إلى الأبد، قد صار أميناً حسب الوعد لكى يستجيب لأولئك الذين يقتربون إليه ولا يخدعهم. هذا ما يمكن أن نتعلمه من رسالة بطرس العظيم الذى يقول: "إذن فالذين يتألمون بحسب مشيئة الله فليستودعوا أنفسهم كما الخالق أمين"[47] لأنه هو أمين وغير متغير، بل هو ثابت إلى الأبد. وهو يهب تلك الأشياء التى وعد بها.

10- ومن ناحية أخرى فإن تلك التى تدعى آلهة عند اليونانيين دون أن تستحق هذا اللقب، هى ليست أمينة لا بحسب كيانها ولا بحسب وعودها إذ أنها ليست هى بعينها فى كل مكان، بل هى آلهة محلية قد أفسدها الزمن واضمحلت من تلقاء ذاتها. لذا يصرخ الكلمة ضدهم: أن الإيمان ليس قوياً فيهم بل هم "مياه خادعة" وأنه "لا إيمان فيهم"، أما إله الجميع إذ هو واحد فى الواقع وبالحقيقة فهو إله حق وأمين وثابت إلى الأبد. وهو يقول: "أنظروا إلىّ فترون إنى أنا هو هو"[48]. و"إنى ما تغيرت"[49]. ولهذا السبب فإن ابنه أمين وهو على الدوام غير متغير وغير مخادع لا فى كيانه ولا فى وعده. وكما كتب الرسول إلى أهل تسالونيكى قائلاً "أمين هو الذى يدعوكم الذى سيفعل أيضاً"[50]. لأنه إذ يعمل ما وعد به فهو أمين فى أقواله. ولهذا يكتب عن معنى اللفظ الذى يفيد عدم

---

(46) **أنظر عب 24:7.**
(47) **1 بط 19:4.**
(48) **تث 39:32.**
(49) **ملا 6:3.**
(50) **تس 24:5.**

التغير "إن كنا غير أمناء فهو يبقى أميناً لا يقدر أن ينكر نفسه"[51]. والرسول إذ يتحدث عن الحضور الجسدى للكلمة يقول: "كونه رسولاً وأميناً للذى أقامه"[52]. مبينا أنه حتى بعد أن صار إنساناً فإن يسوع المسيح "هو هو أمس واليوم وإلى الأبد"[53]. أى لا يتغير. ومثلما أشار الرسول إلى تأنس الرب بواسطة رئاسة كهنوته عندما كتب فى رسالته، فإنه لم يسكت طويلاً عن الحديث عن إلوهيته بل أشار إليها مباشرة، لكى يكون هناك أمان فى كل ناحية وخاصة حينما يتحدث عن التواضع لكى يعرف على الفور رفعته وجلاله الذى من الآب. ولذلك قال: "وموسى كان خادماً أما المسيح فهو إبن" وكان الأول "أميناً فى بيته" أما الثانى فكان "على بيته"[54] لأنه هو الذى أقامه وشيده إذ هو ربه وخالقه، وكإله قد قدسه.

ولما كان موسى إنساناً بالطبيعة، فإنه قد صار أميناً بسبب إيمانه بالله الذى تحدث إليه عن طريق الكلمة، أما الكلمة فلم يكن فى الجسد كأحد المخلوقات، ولم يكن كمخلوق فى مخلوق، بل هو كإله فى الجسد، وكخالق ومُشيِّد وسط ما خُلِقَ بواسطته. وإن كان البشر قد لبسوا جسداً فلكى يكون لهم وجود وكيان. أما كلمة الله فقد صار إنساناً لأجل تقديس الجسد، وبينما هو رب فقد وُجِدَ فى هيئة عبد، لأن كل الخليقة التى وجدت بالكلمة وخُلِقت به هى عبدة له. وبهذا يتضح أن ما قاله الرسول "للذى أقامه (صنعه)" لا يثبت أن الكلمة مصنوع، وإنما المصنوع هو الجسد المماثل لنا، الذى إتخذه، وبالتالى إذ قد صار إنساناً فقد دُعى أخاً لنا.

11- فإن كان قد إتضح أنه حتى عندما يستعمل لفظ "صنع" منسوباً إلى الكلمة نفسه، فإنه يستعمله بمعنى "ولد"، فإية حيلة خبيثة سيتمكنون من تلفيقها زوراً فى سبيل تحقيق غرضهم، فى حين أن حديثنا قد ألقى الضوء على هذا اللفظ من كل ناحية، فقد إتضح أن الإبن ليس مصنوعاً بل هو – بحسب الجوهر – مولود الآب، بينما بحسب تدبير التجسد ومسرة الآب الصالحة فإنه من أجلنا صُنِعَب وتشكل كإنسان؟ ولذلك قيل بواسطة الرسول "كونه أميناً للذى صنعه" وفى الأمثال "قنانى"[55] لأنه ما دمنا نعترف أنه قد صار إنساناً، فلا يوجد ما يمنع أن يقال عنه كما سبق أن قيل أنه: "قد صار"، أو "قد صُنِعَ"، أو "قد خُلِقَ"، أو "تشكل" أو "أنه عبد" أو "ابن أمة" أو "ابن انسان" أو أنه

[51] تيمو 13:2.
[52] أنظر عب 1:3،2.
[53] عب 8:13.
[54] عب 5:3،6.
[55] أم 22:8.

"تكّون" أو "رجل" أو أنه "عريس" أو "ابن أخ" أو "أخ"، لأن كل هذه الألفاظ إنمـــا هـــى الخـــصائص المعروفة عن البشر، وهى لا تتحدث عن جوهر الكلمة بل عن صيرورته إنساناً.

الفصل الخامس عشر

شرح نصوص: خامساً : أعمال 36:2
"جعل يسوع.. رباً ومسيحاً"

وهذا المعنى نفسه نجده أيضاً فى سفر الأعمال حيث يقول بطرس الرسول "أنه جعل يسوع هذا الذى صلبتمون أنتم رباً ومسيحاً[1]. لأنه لم يكتب هنا: "جعل إبناً لذاته" أو "جعل كلمة لنفسه" حتى يتخيلوا عندئذ مثل هذه الأفكار. فإن كان لم يغب عن بالهم أنهم يتحدثون عن ابن الله، فليبحثوا إن كان قد كتب فى موضع آخر أن "الله جعل لذاته ابناً" أو "خلق لنفسه كلمة" أو إن كان قد كتب صراحة فى أى موضع أن "الكلمة مصنوع أو مخلوق"، عندئذ فلينظر هؤلاء الجهلاء إن كان يمكن أن يجدوا شيئاً من هذا النوع. أما إذا لم يعثروا على شئ مثل هذا، بل هم فقط يتصيدون بعض التعبيرات المتفرقة مثل "صنع" و "قد صُنِعَ"، فإنى أخشى أنهم بعد قليل، عندما يسمعون كلمات مثل "فى البدء خلق الله السماء والأرض" و "صنع الشمس والقمر" و"صنع البحر"[2]، فإنهم يقولون أنه هو السماء أو أنه هو النور الذى صار فى اليوم الأول، وأنه أيضاً هو الأرض، وكل مخلوق من مخلوقاته. وبذلك فإنهم يتشبهون بالذين يسمون بالرواقيين. والرواقيون يعتبرون الله نفسه أنه منتشر فى كل المخلوقات. أما هم فإنهم يضعون كلمة الله فى مرتبة واحدة مع كل مخلوق من المخلوقات، خاصة إنهم قد وصلوا فعلاً إلى هذه الدرجة، وذلك عندما قالوا أنه من هو من بين المخلوقات.

12- وهنا يلزمهم أن يسمعوا نفس الكلام مرة أخرى. وليتعلموا أولاً أن اللوغوس هو ابن الله، كما قيل أيضاً فيما سبق، وأنه غير مخلوق، ولا ينبغى أن ينسبوا مثل هذه الألفاظ إلى ألوهيته، بل عليهم أن يفتشوا لماذا، وكيف كتبت هذه الأقوال. ومما لا شك فيه أن تدبير التجسد الذى صنعه لأجلنا سيجيب على الذين يتساءلون لأن بطرس عندما قال "جعله رباً ومسيحاً" أضاف فى الحال "هذا الذى صلبتمون أنتم"[3] مما جعل الأمر واضحاً للجميع. ولعله يصير أيضاً واضحاً لهؤلاء، إن كانوا يتابعون معنى النص، إن كلمة "جعل" ليست عن جوهر الكلمة – بل عن ناسوته. لأن ما هو الذى صلب سوى الجسد؟ فكيف يمكن أن يتحدث عن ما هو جسدى فى الكلمة سوى بقوله "جعل (صنع)"؟. وإلى جانب ذلك، فإن قوله هنا "جعل"، له معنى أرثوذكسى، لأنه لم يقل كما سبق وأوضحنا "جعله كلمة"، بل "جعله رباً"، وليس هذا فحسب بل جعله "رباً لكم". و"فيما بينكم". وهذا هو ما يعنيه بقوله "تبرهن". فبطرس نفسه كان يشير إلى هذا عينه بإهتمام، عندما بدأ هذه العظة الأولى بقوله: "أيها الرجال الاسرائيليون اسمعوا هذه الأقوال. يسوع الناصرى رجل قد تبرهن لكم من قبل

---

[1] أع 36:2.
[2] تك 1:1-16.
[3] أع 36:2.

الله بقوات وعجائب وآيات صنعها الله به فى وسطكم كما أنتم أيضاً تعلمون"[4]. وهذه الكلمة "صـــنع" التى استخدمها فى نهاية حديثه شرحها فى بداية حديثه بكلمة "تبرهن"، لأنه من الآيـــات والعجائـــب التى كان الرب يصنعها، أثبت أنه ليس إنساناً عادياً، بل هو الله فى الجسد، وأنه هـــو الـــرب وهـــو المسيح. وهذا ما قاله يوحنا فى انجيله "من أجل هذا كان اليهود يطاردونه، لأنه لم يـــنقض الـــسبت فقط، بل أيضاً لأنه كان يقول أن الله هو أبوه معادلاً نفسه بالله"[5]. فإن الرب لم يصنع نفـــسه عندئـــذ إلهاً، ولا يمكن أن يعقل أن يكون هناك إله مصنوع، ولكنه تبرهن أنه إله من خلال أعمالـــه عنـــدما قال "فإن لم تؤمنوا بى فآمنوا بأعمالى، لكى تعرفوا أنى فى الآب والآب فىّ"[6]. إذن فقد جعلـــه الآب رباً وملكاً فى وسطنا، ولنا، نحن الذين كنا قبلاً عصاة. فمن الواضح أن هذا الذى يظهـــر الآن أنـــه رب وملك، لم يبتدئ أن يصير عندئذ ملكاً ورباً، بل أبتدأ يظهر ربوبيته، وأن تمتد ربوبيتـــه حتـــى على الذين يعصونه.

13- وإن كانوا يعتقدون أن المخلص لم يكن رباً وملكاً، حتى قبل أن يصير إنساناً وقبـــل أن يحتمل موت الصليب، وأنه عندئذ بدأ أن يكون رباً، فليتهم يعرفون أنهم يرجعون من جديد إلى أقوال الساموساطى[7] بصراحة. ولكن، إن كان كما سبق أن أقتبسناه وذكرناه أن الرب ملـــك أزلـــى، وإن أبراهيم كان يعبده كرب. وموسى قال "فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتاً وناراً من عند الرب من السماء"[8]. وداود يقول فى المزامير "قال الرب لربى اجلس عن يمينى"[9]، و"عرشك يا الله إلـــى دهر الدهور، صولجان إستقامة هو صولجان ملكك"[10]، و"ملكك ملك كل الدهور"[11]. فواضح أنـــه كان ملكاً ورباً سرمدياً قبل أن يصير إنساناً لكونه صورة الأب وكلمته. وحيث أن الكلمـــة هـــو رب وملك أزلى فيتضح أيضاً أن بطرس لم يقل أن جوهر الابن قد صُنِع، بل أن ربوبيته علينا هى التـــى حدثت حينما صار إنساناً، وأنه بإفتدائه الكل بالصليب، قد صار رب الجميع وملكاً عليهم. وإن كانوا يجادلون بسبب أنه مكتوب "جعل" ولا يريدون أن يقروا بأن "جعل" تعنى "أظهر"، أو بـــسبب عـــدم

---

[4] أع 22:2.
[5] يو 18:5.
[6] يو 38:10.
[7] راجع الكتاب الأول هامش 65 فى صفحة 54.
[8] تك 24:19.
[9] مز 1:110.
[10] مز 6:45.
[11] مز 13:145.

فهمهم، أو بسبب ميلهم لمعاداة المسيح، فليسمعوا مرة أخرى أن أقوال بطرس لها معنى أرثوذكسى. لأن الذى يصير رباً لآخرين، فإنه يملك على الذين هم بالفعل تحت سلطانه الآن. أما إن كان الرب خالق الكل، وملك أبدى، فعندما صار إنساناً اقتنانا نحن أيضاً. وبهذا يصير واضحاً أن ما قاله بطرس لا يعنى أن جوهر الكلمة مصنوع، بل يعنى أن خضوع الكل له فيما بعد وربوبية المخلص هى التى صارت، على الكل وهذا يوافق ما سبق أن قلناه. لأنه مثلما استشهدنا هناك بالأقوال التى تقول "كن لى إلها معيناً"[12] و "صار الرب أيضاً ملجأ للمسكين"[13]، واتضح أن هذه الأقوال لا تعنى أن الله مخلوق، بل تشير إلى إحسانه المقدم منه لكل واحد منا، وهكذا فإن قول بطرس له نفس المعنى.

14- ولما كان ابن الله نفسه هو "الكلمة" فهو رب الكل. إلا أننا خضعنا منذ البدء "لعبودية الفساد" و "لعنة الناموس"، ورويداً رويداً، صنعنا لأنفسنا موجودات (معبودات) خدمناها، كما قال الرسول المغبوط[14] "واستعبدنا للذين ليسوا بالطبيعة آلهة"[15] فأنكرنا الإله الحقيقى وفضلنا الأشياء غير الموجودة على الحق. إلا أنه فيما بعد –ملما تأوه الشعب القديم متضجراً فى مصر، بعد أن ثقل كاهله. هكذا نحن أيضاً الذين لدين الناموس المغروس فى الضمير، وبحسب أنات الروح التى لا ينطق بها"[16] بدأنا نصرخ قائلين "أيها الرب إلهنا إمتلكنا"[17]. وقد "صار لنا بيت ملجأ"، و"إله معين". هكذا أيضاً قد صار الرب بالنسبة لنا، ولم يكن هذا هو بدء وجوده، بل نحن الذين بدأنا نأخذه رباً لنا. ومن ثم لأن الله صالح وهو أبو الرب، وإذ تحنن وأراد أن يصير معروفاً من الجميع، فقد جعل ابنه الذاتى أن يلبس جسداً بشرياً ويصير إنساناً ويدعى يسوع، لكى يبذل نفسه فى هذا الجسد لأجل الجميع، ويخلص الجميع من الضلال عن الله، ومن الهلاك، ويصير هو نفسه رباً وملكاً للكل. لذلك فإن صيرورته رباً وملكاً، هو نفس ما قصده بطرس بقوله "جعله رباً، وأرسله مسيحاً"[18]. وهذا مشابه للقول أن الآب إذ قد جعل منه إنساناً – لأنه أمر يخص الإنسان أن يكون مصنوعاً – فهو لم يجعله إنساناً فقط بل جعله هكذا لأنه يكون رباً على الجميع ويقدس الكل بواسطة المسحة. لأنه

(12) مز 3:31.
(13) مز 9:9.
(14) رو 25:1.
(15) غل 8:4.
(16) رو 26:8.
(17) اش 13:26 سبعينية.
(18) أع 36:2.

وإن كان الكلمة وهو الكائن فى صورة الله، إتخذ صورة عبد، إلا أن إتخاذه للجسد لم يجعل الكلمة وهو رب بالطبيعة أن يكون عبداً، بل بالأحرى فإن الكلمة بهذا الحدث (إتخاذ الجسد) قد حرر كل البشرية. إن الكلمة نفسه وهو بالطبيعة الرب قد جُعل إنساناً، ومن خلال صورة العبد صار رب الجميع ومسيحاً، أى لكى يقدس الجميع بالروح.

وكما أن الله عندما صار إلهاً معيناً قائلاً: "سأكون لهم إلهاً"[19]، فإنه لم يصر فى ذلك الوقت إلهاً أكثر من ذى قبل، ولم يبتدئ عندئذ أن يصير إلهاً، بل إن هذا هو الأمر الواقع دائماً، ولكنه صار هكذا للمحتاجين إليه حينما سُرَّ بذلك. وهكذا أيضاً المسيح إذ هو بالطبيعة رب وملك أزلى، لم يصر رباً عندما أُرسِلَ، ولم يبتدئ عندئذ أن يكون رباً وملكاً، بل إن هذا هو الأمر الواقع دائماً، إنما قد جُعِلَ هكذا بحسب الجسد. ولأنه صار فادياً للجميع، فقد صار رب الأحياء والأموات. ولذلك فإن كل الأشياء تخضع له، وهذا أيضاً هو ما يعنيه داود حينما يترنم "قال الرب لربى أجلس عن يمينى حتى أضع أعداءك موطئاً لقدميك"[20]. لأنه لا يجب أن يكون الفداء عن أى طريق آخر سوى عن طريق ذاك الذى هو الرب بالطبيعة، لئلا بعد أن خلقنا الابن فإننا ندعو لنا رباً آخر، أو نسقط فى الحماقة الأريوسية واليونانية (الوثنية) بأن نعبد المخلوق من دون الله خالق جميع الأشياء[21].

15- هذا هو المعنى المقصود من هذا القول –وذلك على قدر حقارتى – لأن أقوال بطرس هذه الموجهة إلى اليهود، لها سبب حقيقى وصحيح لأن اليهود إذ ضلوا عن الحق وزاغوا، ما زالوا ينتظرون مجئ المسيح ظانين أنه لن يقاسى ألماً عندما يأتى، ويقولون ما لا يفهمون: "نحن نعرف أنه عندما يأتى المسيح سيبقى إلى الأبد. فكيف تقول أنت أنه ينبغى أن يرفع"[22] وهم أيضاً لا يرون أنه الله الذى جاء فى الجسد، بل إنه مجرد إنسان سامى مثل كل الملوك. ولذا وبخ الرب كليوباس والذى معه معلماً إياهما "أن المسيح" ينبغى أن يتألم أولاً"[23]. وهكذا فعل أيضاً مع اليهود الآخرين معلماً إياهم أن الله أقام فى وسطهم عندما قال: "إن قال آلهة لأولئك الذين صارت إليهم كلمة الله ولا

---

[19] خر 27:37.
[20] مز 1:110.
[21] رو 25:1.
[22] يو 34:12.
[23] لو 26:24.

يمكن أن ينقض المكتوب، فالذى قدسه الآب وأرسله إلى العالم، أتقولون أنتم أنك تجدف لأنـــى قلـــت أنى ابن الله"[24].

16- ولأن بطرس قد عرف هذه الأمور من المخلص، فقد قوم أفكار اليهود فى كلتا الحالتين وكأنه يقول: (أيها اليهود ان الكتب المقدسة تعلن أن المسيح قادم، وأنتم تظنونه إنساناً بسيطاً كواحـــد من نسل داود، أما ما كُتب عنه فيبين أنه ليس مثلما تقولونه أنتم، بل بالحرى يعلـــن أنـــه رب وإلـــه، وغير مائت، وهو واهب الحياة. لأن موسى يقول "سترون حياتكم معلقة قـــدام عيـــونكم"[25]، وداود يقول فى المزمور المئة والتاسع "قال الرب لربى أجلس عن يمينى حتـــى أضـــع أعـــداءك موطئـــاً لقدميك"[26] وفى المزمور الخامس عشر "لن تترك نفسى فى الهاوية، ولـــن تـــدع قدوســـك يـــرى فساداً"[27]. لأن مثل هذه الأقوال، فى الواقع لا تعود على داود، فهو نفسه يشهد قائلاً بأن الآتى هـــو ربه، وأنتم أنفسكم تشهدون أن داود قد مات ورفاته موجودة لديكم. فإن كان المسيح يجب أن يكـــون هكذا كما تتحدث عنه الكتب، فأنتم أنفسكم يجب أن تعترفوا به لأن هذه الكلمـــات قـــد قالهـــا الله، ولا يمكن أن يعتريها أى كذب. فإن استطعتم أن تثبتوا أن هناك شخصاً مثل هذا قـــد جـــاء قبـــل ذلـــك، وتستطيعون أن تبرهنوا أنه هو الله. من الآيات والمعجزات التى يكون قد صـــنعها، فيحـــق لكـــم أن تجادلوا. أما إن لم تتمكنوا من إثبات أنه قد أتى مثل هذا الشخص، بـــل لا تزالـــون تنتظرونـــه، إذن فأعرفوا وقت مجيئه من نبوات دانيال. لأنه ما قاله إنما يشير إلى الوقت الحاضر.

فإن كان هذا الوقت الحاضر هو الوقت الذى سبق الإعلان عنه، وشـــاهدتم الأحـــداث التـــى وقعت بيننا الآن، فإن (يسوع) هذا الذى صلبتموه أنتم، هو المسيح نفسه، وأنه هو المسيح المنتظـــر. لأن داود وكل الأنبياء ماتوا وقبورهم عندكم. أما القيامة التى حدثت الآن فإنهـــا توضـــح أن هـــذه الكتابات إنما تخبر عنه.

لأن الصلب هو المقصود بالقول "سترون حياتكم معلقة"[28] وجرحه بالحربة فى جنبـــه هـــو تكميل للقول "كشاه سيقت إلى الذبح"[29]. وقيامته- ليس هو وحده – بل قيامة الموتى القـــدامى مـــن

---

[24] يو 10:35-36.
[25] تث 66:28 هكذا فهم الآباء هذا النص – راجع تجسد الكلمة 35.
[26] مز 1:110.
[27] مز 10:16.
[28] تث 66:28.
[29] أش 7:53.

قبورهم (لأن غالبيتكم قد شاهدوهم)، هى ما يعنيه القول "ل، تترك نفس فى الهاويــة"[30]. و"ابتلــع الموت بقوته" وأيضاً "الرب مسح"[31]. لأن هذه العلامات التى حدثت فعلاً تثبت أن هذا الــذى فـــى الجسد هو الله، وأنه هو الحياة – وهو رب الموت. فالمسيح الذى هو واهب الحياة للآخرين لا ينبغى أن يسود عليه الموت. وهذا ما كان ممكناً أن يحدث لو كان المسيح إنساناً عادياً كما تعتقــدون أنــتم، بل هو بالحقيقة، ابن الله لأن جميع الناس خاضعون للموت. من أجل هذا لا ينبغى لأحد أن يشك فيما بعد، بل ليعلم كل بيت أسرائيل تماماً، أن يسوع هذا، الذى رأيتموه إنساناً فى مظهره الخارجى، وهو يصنع آياتٍ وأعمالاً مثل هذه – التى لم يصنع مثلها أحد قط – هو نفسه المسيح ورب الجميع. لأنـــه رغم أنه صار انساناً ودعى باسم "يسوع" كما سبق أن قلنا، إلا أن قدره لم ينقص بالآلام البشرية. بل بالأحرى، فإنه بصيرورته انساناً قد برهن أنه رب الأحياء والأموات. لأنه كما يقول الرسول "لأنـــه إذ كان العالم فى حكمة الله، لم يعرف الله بالحكمة، استحسن الله أن يخلص المؤمنين بواسطة جهالـــة الكرازة"[32]. وهكذا نحن البشر أيضاً، عندما رفضنا أن نعرف الله من خلال كلمتـــه، ورفــضنا أن نخدم سيدنا الطبيعى: كلمة الله، استحسن الله أن يظهر ربوبيته الذاتية فـــى الإنـــسان، وأن يجتـــذب الجميع نحو نفسه. ولم يكن من اللائق أن يصنع هذا بواسطة اسنان عادى حتى لا نـــصير عابـــدى بشر بإتخاذنا الإنسان رباً، ولأجل ذلك فقد صار الكلمة نفسه جسداً، ودعاه الآب يسوع، وهكذا جعله رباً ومسيحاً. بمعنى أنك تقول: "جعله لكى يسود ويملك" ولأنه باسم يسوع – الذى صلبتموه – أنتم – تنحنى كل ركبة، فإننا نعترف أن الابن نفسه هو الرب والملك، وأن الآب هو هكذا أيضاً من خلاله.

17- وعندما سمع غالبية اليهود هذه الأقوال رجعوا إلى أنفسهم، ثم اعترفوا بالمسيح كما هو مكتوب فى سفر الأعمال. ولأن مجانين الآريوسية قد اختاروا أن يظلوا يهوداً، وأن يناضـــلوا ضـــد بطرس، لذلك هيا بنا نقتبس لهم عبارات مماثلة، فربما يتحولون بهذه الطريقة عندما يتعلمن أســـلوب الكتب المقدسة. فقد اتضح مما سبق أن المسيح رب أزلى وملك، ولا يشك أحد فى هذا القول. فلأنـــه هو ابن الله، فإنه يلزم أن يكون مماثلاً له، ولكونه مماثلاً فهو قطعاً رب وملك معاً. فقد قال هو عـــن نفسه "من رآنى فقد رأى الآب"[33]. أما وأن عبارة بطرس هذه: "جعله رباً ومـــسيحاً"، لا تعنـــى أن الابن مصنوع، فهذا ممكن أن نراه من بركة اسحق – رغم أن هذه الصورة باهتة نوعاً ما من جهـــة

(30) مز 10:16.
(31) اش 8:25.
(32) 1كو 21:1.
(33) يو 9:14.

هذا الموضوع المطروح للبحث – وذلك عندما قال ليعقوب "كن سيداً لأخيك"[34]، وقال لعيسو "هأنذا قد جعلته سيداً لك"[35]. إذن حتى لو كان لفظ "جعل" يشير إلى جوهر يعقوب وبدء وجوده فما كان ينبغي لهؤلاء أن يفكروا بمثل هذه الأفكار عن "كلمة الله" لأن ابن الله ليس مخلوقاً مثل يعقوب. ومع ذلك فقد كان في وسعهم أن يستوضحوا الأمر ويعرفوه حتى لا يتمادوا أكثر في جنونهم. فإن فهموا هذه الأمور على إنها لا تخص الجوهر ولا بداية الوجود، على الرغم من أن يعقوب مخلوق ومصنوع بحسب الطبيعة، فكيف لا يكونون أكثر جنوناً من الشيطان، عندما يتجاسرون أن ينسبوا لأبن الله تلك الأوصاف التي لا يتجاسرون أن يلصقوها بالكائنات المخلوقة بالطبيعة، ويقولون عنه أنه مخلوق؟ فإن قول اسحق "كن" و "جعلته" لا يعني بداية خلقه يعقوب ولا جوهره، لأنه قال هذه بعد ثلاثين سنة أو أكثر من ميلاد يعقوب، ولكن سيادته على أخيه هي التي حدثت بعد ذلك.

18- إذن فبطرس بالأحرى – ما كان يقصد بهذه الكلمات أن جوهر الكلمة مخلوق – لأنه يعرف أنه ابن الله، إذ قد اعترف قائلاً "أنت هو المسيح ابن الله الحي"[36]، ولكنه يقصد بها ملكوته وسيادته التي تحققت وصارت فينا بحسب النعمة. وهو حينما قال هذا لم يصمت عن ألوهية ابن الله الأزلية التي هي أيضاً للآب. لأنه قد سبق وقال أنه قد سكب الروح علينا[37] إذ ليس من طبيعة الخليقة ولا الأشياء المصنوعة أن تعطي الروح بسلطان، بل هو عطية الله. فالمخلوقات تتقدس بواسطة الروح، أما الابن فحيث أنه لا يتقدس بواسطة الروح بل بالأحرى هو الذي يعطي الروح للجميع، لذلك فهو ليس مخلوقاً، بل هو ابن الآب الحقيقي. ورغم أنه هو واهب الروح، إلا أنه يقال عنه أيضاً أنه قد صُنِعَ، وهذا يعني أنه قد صُنِعَ رباً فيما بيننا من خلال بشريته، في حين أنه واهب الروح لأنه كلمة الله. لأنه كما كان ابناً على الدوام ولا يزال دائماً، فهو أيضاً رب وسلطان على الجميع. لكونه مثل الآب في كل شئ وله كل ما للآب كما قال هو نفسه[38].

---

(34) تك 29:27.
(35) تك 37:27.
(36) مت 16:16.
(37) أع 17:2.
(38) يو 15:16.

الفصل السادس عشر

مقدمة لشرح أمثال 22:8

"أن الابن ليس مخلوقاً"

18 (تكملة) – هنا إذن فلنتأمل ما قيل فى الأمثال: "الرب قنانى (خلقنى) أول طرقه لأجل أعماله" (أم 22:8 سبعينية). رغم أننا إذ قد أوضحنا أن الكلمة ليس مصنوعاً، فهذا يدل أيضاً على

أنه ليس مخلوقاً. فإن يقال عنه أنه مصنوع هو نفسه أن يقال عنه أنه مخلوق، لذا فإن البرهان على أنه غير مصنوع هو نفس البرهان على أنه ليس مخلوقاً. لهذا قد يدهش البعض مما يخترعه هؤلاء من تبريرات لكفرهم، غير مستحين من البراهين التى اقمناها لك نقطة على حدة. لأنهم قبل كل شئ، أخذوا يخدعون البسطاء بأسئلتهم مثل: "هل الكائن قد صنع من غير الموجود كائناً غير موجود أم كائناً موجوداً؟" وأيضاً "هل كان لك إبن قبل أن تلده؟" ولما اتضح أن كلامهم هذا فاسد وبلا اساس، أخذوا يخترعون هذا السؤال "هل يوجد واحد فقط غير مخلوق أم اثنان؟" وبعد أن دحضت أفكارهم سرعان ما أضافوا "هل له إرادة حرة؟ وهل طبيعته قابلة للتغيير؟"[1] ولكن بعد أن رفضت هذه أيضاً يقولون فى الحال "صائراً أعظم من الملائكة بهذا القدر"[2]. وحينما دحضت الحقيقة هذا الإدعاء أيضاً، فهم الآن وقد ساقوا كل تلك الأقوال معاً يظنون أنهم عن طريق لفظتى "مصنوع" و "مخلوق" سيدعمون هرطقتهم. فإن هذا هو ما يعنونه ايضاً، فهم لم يتخلوا عن خبثهم وسوء نيتهم، إذ هم يحورون ويدورون هرطقتهم نفسها بأشكال متنوعة لعلهم يستطيعون أن يخدعوا البعض عن طريق هذه الأشكال المتغيرة، رغم أن كل ما سبق أن قلناه يثبت بطلان حجتهم. ولكن حيث أنهم ملأوا كل مكان بهذا القول المأخوذ من الأمثال حتى يبدو هذا القول لدى كثيرين من الذين يجهلون العقيدة المسيحية أنه يعنى شيئاً ما، فإنه من الضرورى أن نوضح هنا القول مثلما أوضحنا عبارة "كونه أميناً للذى أقامه"[3] وبنفس الطريقة سنفحص لفظ "قنى" (خلق) كى يظهر للجميع أنهم فى هذا الأمر، كما فى غيره لا يملكون شيئاً آخر سوى الخيال.

19- أولاً، يلزم أن نرى الإجابات التى أجابوا بها على المطوب الذكر "الكسندروس"[4] فى بادئ الأمر عندما ابتدعوا هرطقتهم، فقد كتبوا هكذا: "إنه مخلوق ولكن ليس واحداً من المخلوقات. إنه مصنوع ولكنه ليس واحداً من المصنوعات، إنه مولود ولكنه ليس واحداً من المولودين". إذن فليحذر كل واحد خبث هذه البدعة ودهائها، ذلك لأنها بعد أن عرفت مرارة إنحرافها وضلالها، اضطرت أن تزين نفسها بإستعمال ألفاظ تحتمل معانى مختلفة، فتقول "إنه مخلوق" وهذا ما تعتقده، ولكنها تظن أنها تستطيع أن تخفى ذاتها بقولها "ولكنه ليس كواحد من المخلوقات". فهم بكتاباتهم

(1) انظر المقالة الأولى الفصل العاشر.

(2) عب 4:1.

(3) عب 2:3.

(4) كان الكسندروس اسقف الاسكندرية عندما ظهرت الهرطقة الآريوسية، وهو أول من تصدى لها (أنظر الملحق المنشور فى نهاية كتاب المقالة الأولى ضدالأريوسيين).

هكذا قد كشفوا كفرهم أكثر. لأنه إن كان وفقاً لرأيكم أنه مخلوق، فكيف تتظاهرون بقولكم "لكن لـــيس كواحد من المخلوقات" وإن كان هو "مصنوعاً" فكيف يكون "ليس كواحد من المصنوعات" وفى هـــذا الكلام يمكن أن نرى سم الهرطقة. لأنه بقولهم "مولود" ولكن "ليس كواحد مـــن المولـــودين" فـــإنهم يقدمون أبناء كثيرين ويقرون أن الرب أيضاً واحد من بينهم، فإنه حسب اعتقادهم ليس بعـــد "وحيـــد الجنس" بل إنه واحد بين إخوة عديدين، وإنه يسمى مولوداً وإبناً. فأية فائدة إذن من القول بأنـــه مـــن ناحية مخلوق، ومن ناحية أخرى غير مخلوق؟ وأيضاً لو قلتم "ليس كواحد من المخلوقـــات" فـــإنى سأثبت أن مغالطتكم هذه خالية من الحكمة. فإنكم لا تزالون تقولـــون "أنـــه واحـــد منالمخلوقـــات". والأشياء التى يمكن أن يقولها أحد الناس عن سائر المخلوقات، تفكرون بهـــا أنـــتم هكـــذا عنـــالابن كجهلاء وعميان حقاً. فهل أى مخلوق من المخلوقات هو مثل الآخر حتى تنسبوا هذا للابـــن كـــشئ مميز له؟ وكل الخليقة المرئية قد تكونت فى ستة أيام. ففى اليوم الأول عمل النور الذى دعاه نهـــاراً. وفى اليوم الثانى كان الجلد، وفى اليوم الثالث بعد أن جمّع الماء أظهر اليابسة، وأنبت فيها مختلـــف الثمار. وفى اليوم الرابع صنع الشمس والقمر وكل النجوم. أما فى اليوم الخامس فقد خلـــق جـــنس الأحياء فى البحر، والطيور فى الهواء. وصنع فى اليوم السادس ذوات الأربع التى علـــى الأرض، وبعد ذلك الإنسان. "إن أموره غير المنظورة ترى منذ خلق العالم مدركة بالمصنوعات"[(5)]. فـــالنور ليس كالليل ولا الشمس كالقمر. ولا غير العاقل كالانـــسان العاقـــل، ولا الملائكـــة كـــالعروش، ولا العروش كالسلاطين، فكلها مخلوقات ولكن كل واحد حسب نوعه من المخلوقات، يوجد ويظل فـــى جوهره الذاتى كما خلق.

20- وعندئذ إما أن يُستثنى الكلمة من بين المصنوعات، وكخالق يُنسَب إلى أبيه ويُعترف به أنه ابن بالطبيعة، أو أن يكون مجرد خليقة وعندئذ يعترف به أن له وضعه الخاص الذى للمخلوقـــات الأخرى تجاه بعضها البعض. فليقل إذن عن كل هذه المخلوقات كما يُقال عنه. "خليقة ولكـــن لـــيس كواحد من المخلوقات، مولود أو مصنوع وليس كواحد من المصنوعين أو المولودين؟" لأنكم قد قلتم أن "المولود" هو نفسه "المصنوع" عندما كتبتم: "مولود أو مصنوع". وبالإضافة إلى ذلـــك إن كـــان الأبن يتفوق على سائر المخلوقات الأخرى بالمقارنة فإنه كمخلوق يظل مثل سائر المخلوقات. فإنـــه بالنسبة لتلك المخلوقات التى هى بطبيعتها مخلوقة، ممكن أن نجد البعض يتفوق على البعض الآخـــر

(5) رو **20:1**.

"لأن نجماً يمتاز عن نجم فى المجد"[6]. لأنه يوجد اختلاف بين سـائر المخلوقـات عنـد مقارنتهـا بعضها ببعض، ولكن ليس معنى هذا أن بعضها سادة. والبعض الآخر تخدم الأسمى منها، ولا يكون البعض علة للمصنوعات والبعض الآخرة ناتجاً منها. ولكن عموماً فإن جميع الأشياء لهـا طبيعـة صائرة ومخلوقة. وكلها تعترف فى ذاتها بخالقها كما يترنم داود "السموات تحدث بمجد الله، والجلـد يخبر بعمل يديه"[7]. كما يقول أيضاً الحكيم زربابل "كل الأرض تنـادى والـسماء تباركـه، وكـل المصنوعات تتزلزل وترتعد"[8]. فإن كانت كل الأرض تسبح الخالق والحق وتباركه وترتعد أمامه، وإن كان خالقها من الكلمة، وهو ذاته يقول "أنا هو الحق"[9]، فتبعاً لذلك لا يكون الكلمة مخلوقاً، فهـو الوحيد الذى من ذات الآب، والذى دبر كل الأشياء. وجميعها، تسبحه كخالق، كما يقول هـو ذاتـه "كنت عنده مدبراً"[10] و"أبى يعمل حتى الآن وأنا أيضاً أعمل"[11]، إن تعبير "حتى الآن" يدل علـى أنه موجود ككلمة فى الآب منذ الأزل، لأنه من خاصية الكلمة أن يعمـل أعمـال الآب ولا يكـون خارجاً عنه

21- وإن كانت هذه الأشياء التى يعملها الآب يعملها الابن أيضاً، والأشياء التى يخلقها الابن هى مخلوقات الآب، ومع ذلك يكون عمل الابن هو عمل الآب وخلقه، فعندئذ إما أنه سيصنع نفـسه ويكون هو خالق نفسه (حيث أن الأعمال التى يعملها الآب هى الأعمال التى يعملها الابـن)، وهـذا أمر غير معقول ومستحيل. أو أن كان يخلق ويعمل مخلوقات الآب، فلا يمكن أن يكون هـو عمـلاً ولا خليقة. لأنه إن كان هو علة خالقه. وفى نفس الوقت مصنوعاً = مخلوقاً (حسب قولكم) فإن هـذا يجعل نفس الشئ يحدث فى حالة المخلوقات كما حدث معه (أى تصير مخلوقة وخالقـة فـى نفـس الوقت) وإلا فإنه لا يكون قادراً أن يصنع على الإطلاق. لأنه كيف يكون قد صار من العـدم –كمـا تقولون – ويكون فى إمكانه أن يخلق ويجلب إلى الوجود الأشياء غير الموجودة؟ فإن كان وهو نفسه مخلوق يقوم بالخق، فمن الممكن أن يفهم أن هذا الأمر يحدث أيضاً لكل مخلوق حتى أنه يكون فـى وسع هذه المخلوقات أن تخلق. فإن كنتم تريدون أن يكون الأمر هكذا، فما الحاجة إذن إلـى وجـود الكلمة طالما أنه سيكون فى وسع المخلوقات الأقل منزلة أن تخلق من المخلوقات الأسمى منهـا – أو

(6) 1كو 41:15.
(7) مز 1:19.
(8) عزر الأول 6:4 (من الأسفار القانونية الثانيه).
(9) يو 6:14.
(10) أم 30:8 (السبعينية).
(11) يو 17:5.

إن كان فى إمكان كل مخلوق – على وجه الإطلاق – أن يسمع مباشرة من الله منذ البدء "كن" و "فلتُخلق" وتكون هذه هى الطريقة التى تكونت بها سائر الأشياء ولكن هذا لم يكتب، وليس ممكناً أن يكتب هكذا لأنه ليس من الممكن أن يكون أحد المخلوقات عِلّة خالقه، لأن كل الأشياء قد صارت بالكلمة، فلو كان الكلمة ذاته معدوداً بين المخلوقات لما كان فى استطاعته أن يخلق كل الأشياء. بل ولا الملائكة أيضاً يستطيعون أن يخلقوا لأنهم هم أيضاً من بين المخلوقات. حتى إن كان فالنتينوس وماركيون وباسيليدس يعتقدون بذلك وأنتم تتمثلون بهم. ولا الشمس لكونها مخلوق تستطيع أن تجلب إلى الوجود ما هو غير موجود، ولا يستطيع الإنسان أن يخلق إنساناً، ولا الحجر حجراً. ولا يتكاثر الخشب من خشب.

إنما هو الله "الذى صور الانسان فى الرحم"[12]. وهو الذى ثبت الجبال، والذى ينمى الأخشاب. أما الإنسان فلكونه قادراً على تحصيل المعرفة، فإنه يرتب هذه المادة ويصنفها، ويشتغل بالموجودات كما تعلّم، وهو يكون راضياً بمجرد أن هذه الأشياء وجدت. ولأنه عرف طبيعة نفسه، فإنه عندما يحتاج إلى شئ، يعرف أن يطلبه من الله.

22- إذن فإن كان الله أيضاً يقوم بالتنقيح والتصنيف من المادة (الموجودة) كما تعلّم الفلسفة اليونانية، فإن الله لن يدعى خالقاً بل فناناً، وهكذا فإن الكلمة لن يدعى خالقاً بل فناناً، وهكذا فإن الكلمة سيعمل بالمادة بأمر الله وفى خدمته.

ولكن إن كان الله قد دعا الأشياء غير الموجودة إلى الوجود بواسطة كلمته الذاتى، فلا يكون الكلمة من بين الأشياء غير الموجودة والتى دعيت (إلى الوجود)، وإلا فلنبحث عن كلمة آخر بواسطته دعى الكلمة نفسه أيضاً إلى الوجود – لأن كل الأشياء غير الموجودة قد صارت بالكلمة. وإن كان الآب يخلق ويصنع به، فلا يكون هو نفسه من بين الأشياء المخلوقة والمصنوعة بل بالأحرى هو كلمة الله الخالق، ومن أعمال الآب التى يعملها هو ذاته، يُعَرف أنه "فى الآب والآب فيه"، و "من رآه فقد رأى الآب"[13] وذلك بسبب أن جوهر الابن هو خاص بالآب ومماثل له فى كل شئ. فكيف إذن يخلق به إن لم يكن هو نفسه كلمته وحكمته؟ وكيف يمكن أن يكون كلمته وحكمته إن لم يكن هو مولود جوهره الذاتى، ولا يكون واحداً من المخلوقات مثل سائر الأشياء الأخرى؟ وإن كانت كل الأشياء قد صارت من العدم، وهى كائنات مخلوقة، وإن كان الابن – حسب معتقداتهم

---

[12] ارميا 5:1.
[13] يو 9:14.

هو واحد من بين المخلوقات التى لم تكن موجودة فى وقت ما، فكيف يكون هو وحـــده الـــذى يعلـــن الآب وليس أحد يعرف الآب سواه؟

لأنه إن كن ممكناً أن يعرف الآب بالرغم من كونه مخلوقاً، فإن جميع المخلوقات أيـــضاً إذن يمكنها أن تعرف الآب، بحسب قياس المخلوقات، لأن جميع المخلوقات أيضاً مصنوعة مثلـــه. وإن كان من غير الممكن للمخلوقات أن ترى الآب وتعرفه لأن هذه الرؤية وهذه المعرفـــة تعلـــو علـــى مستوى جميع المخلوقات، والله نفسه قد قال "لا أحد يرى وجهى ويعيش"[14]. أما الابن فقال "لـــيس أحد يعرف الآب إلا الابن"[15] إذن فإن الكلمة مختلف عن المخلوقات، وهو وحده الذى يعرف الآب ويراه كما قال "ليس أحد يعرف الآب إلا الآب إلا الذى هو من الآب"[16]، وأيضاً "ليس أحد يعـــرف الآب إلا الابن". وإن كان هذا لا يروق لآريوس. فكيف إذن عرف (الآب) وحده إن لم يكن هو نفسه من ذات الآب؟ وكيف يمكن أن يكون من ذات الآب لو كان مخلوقاً ولم يكن ابناً حقيقياً منـــه؟ لأنـــه يجب ألا نمل من تكرار نفس الأقوال المتعلقة بالتقوى مراراً. ولذلك فإنه يعد تجديفاً أن يعتقـــد أحـــد بأن الابن هو واحد من بين جميع المخلوقات. وأنه من التجديف والغباء أن يقال "مخلوق" ولكنه ليس كواحد من المخلوقات" و"مصنوع ولكنه ليس كواحد من (المصنوعات)"، و "مولـــود ولكنـــه لـــيس كواحد من بين المولودين".

لأنه كيف لا يكون واحداً من بين تلك المخلوقات لو أنه من وجهة نظرهم لم يكن موجوداً قبل أن يولد؟ لأن خاصية المخلوقات والمصنوعات هى أنها تكون غير موجودة قبل أن تخلـــق، وأنهـــا توجد من العدم، حتى لو كانت هناك فروق بين المخلوقات بسبب اختلافها فى المجـــد، فـــإن هـــذه الفروق بين الواحد والآخر توجد فى جميع المخلوقات وتتضح فى كل المرئيات.

23- ولكن إن كان الهراطقة يحسبون الابن "مخلوقاً أو مصنوعاً ولكن لـــيس كواحـــد مـــن المخلوقات" بسبب تفوقه عنها فى المجد، لكان من الواجب أن تظهره الأسفار المقدسة وتميـــزه فـــى درجة أسمى بالمقارنة بالمصنوعات الأخرى، فمثلاً كان يجب أن يقال أنـــه أعظـــم مـــن رؤســـاء الملائكة، وأنه أكثر كرامة من العروش، أو أكثر بهاء من الـــشمس والقمـــر، وأعظـــم أيـــضاً مـــن السموات ولكن الواقع أن الكتب المقدسة لا تذكره هكذا، بل إن الآب يظهره أنه ابنه الذاتى والوحيـــد

---

(14) **خر 20:33.**

(15) **مت 27:10.**

(16) **يو 46:6.**

بقوله "إنك أنت ابنى"[17]، و"هذا هو ابنى الحبيب الذى به سررت"[18]. ولهـذا صـارت "الملائكـة تخدمه"[19]. حيث أنه كان مختلفاً عنهم وهم يسجدون له ليس لكونه أعظم منهم فى المجد، بـل لأنـه مختلف تماماً عن جميع المخلوقات بما فيهم أولئك الملائكة، لأنه بحسب الجوهر هو الابـن الوحيـد الذاتى للآب. فلو كانوا يسجدون له لمجرد أنه متفوق فى المجد لكان من الواجب عل كل كـائن مـن الكائنات الأدنى أن يسجد للأسمى منه. ولكنه ليس الأمر هكذا، لأن المخلوق لا يعيد مخلوقـاً آخـر، بل أن العبد يعبد الرب. والمخلوق يعبد الله. لذا فعندما أراد كرنيليوس أن يـسجد لبطـرس، منعـه الرسول بطرس قائلاً "أنا أيضاً انسان"[20] وعندما أراد يوحنا أن يسجد للملاك فـى الرؤيـا منعـه الملاك قائلاً "أنظر لا تفعل فإنى عبد معك ومع إخوتك الأنبياء ومع الـذين يحفظـون أقـوال هـذا الكتاب. اسجد لله"[21] وتبعاً لذلك فإن السجود يكون لله وحده، وقد عرف الملائكة أنفسهم هذا رغـم انهم يفوقون غيرهم فى المجد. فهم جميعاً مخلوقات وليسوا من الذين يُسجد لهم، بل هـم مـن بـين الذين يسجدون للرب. فعندما أراد منوح أبو شمشون أن يقدم ذبيحة للملاك، منعه المـلاك قـائلاً "لا تقدم لى بل لله"[22]. أما الرب فإنه يُسجد له من الملائكة لأنه مكتوب "فلتـسجد لـه جميـع ملائكـة الله"[23]. ومن كل الأمم، كما يقول أشعياء: "مصر تعبت لأجلك، وتجارة الأثيوبيين، ورجـال سـبأ طوال القامة إليك يعبرون، وسيكونون عبيداً لك "ثم يقول: "ولك يسجدون وإليك يتضرعون قـائلين فيك وحدك الله. لا يوجد إله سواك يا رب"[24]. وعندما سجد له التلاميذ قبل منهم السجود وأخبـرهم من يكون هو قائلاً: "أنتم تدعوننى رباً ومعلماً وحسناً تقولون لأنى أنا كذلك"[25] وحينما قال له تومـا "ربى وإلهى"[26]، سمح له بهذا القول، وبالأحرى قبله ولم يمنعه. لأنه كما يقول سائر الأنبياء، وكمـا

---

(17) مز 7:2.
(18) مت 17:3.
(19) مت 11:4.
(20) أع 26:10.
(21) رؤ 9:22.
(22) قض 16:13.
(23) مز 7:96، عب 6:1.
(24) اش 14:45 سبعينية.
(25) يو 13:13.
(26) يو 28:20.

يترنم داود "هو رب القوات"[27]، و"رب الصباؤوت" الذى تفسيره "رب الجنود" وهو إله حق ضابط الكل حتى ولو مزق الأريوسيين ثيابهم بسبب هذا.

24- فهو ما كان ليُسجد له، أو تُقال عنه تلك الأقوال لو أنه كان من بين المخلوقات. ولكنه الآن حيث أنه ليس بمخلوق، بل هو المولود الذاتى لجوهر الله المعبود، وهو ابنه بالطبيعة، لذلكفإنه يُسجد له ويُؤمن به أنه إله وأنه رب الجنود وله السلطان، وهو ضابط الكل مثل الآب، لأنه هو نفسه قد قال: "كل ما للآب فهو لى"[28]. لأنه من خاصية الابن أن يكون له ما للآب، وأن يكون هكذا حتى أنالآب يُرى فيه، وأن جميع الأشياء تصير به، وأن خلاص الكل به يتم وفيه يتحقق.

الفصل السابع عشر

مقدمة لشرح أمثال 22:8

"أن الابن ليس مخلوق (تابع)"

---

[27] مز 10:23.

[28] يو 15:16.

وجيد هنا أن نسألهم هذا السؤال أيضاً لكى يكون دحض هرطقتهم أكثر وضوحاً.

رغم أن "كل الأشياء" مخلوقة، وأصلها كلها من العدم وحتى الابن أيضاً حسب فكرهم – مخلوق ومصنوع، وهو واحد من الأشياء التى لم تكن موجودة قط، فلماذا نجد فى نفس الوقت، أنه هو ذاته قد صُنعت به كل الأشياء، "وبغيره لم يكن شئ مما كان"[1]. أو لماذا، حينما يكون الحديث عن "كل الأشياء" لا يفهم أحد أن الابن محسوب بين كل الأشياء، وإنما يفهم فقط أن المقصود هو المخلوقات فقط؟ فى حين أنه عندما تتحدث الكتب المقدسة عن الكلمة، فهى لا تفهمه بإعتباره معدوداً بين "كل المخلوقات" بل تضعه مع الآب، إذ أنالآب يعمل ويحقق به العناية بالكل والخلاص للكل رغم أن نفس كلمة الأمر التى بها قد صارت كل الأشياء يمكن أن يوجد بها هو (الابن) من الله وحده؟ فإن الله لا يتعب من إصدار الأوامر ولا يضعف من خلق الأشياء كلها حتى يخلق الابن وحده فقط (حسب فكرهم) وحتى يحتاج للابن كخادم ومعين لأجل خلق الأشياء الأخرى. لأنه لا ولن يؤجل شيئاً مما يريده أن يصير، بل إنه فقط قد شاء، وكما شاء صار الكل فى الحال. ولأن أحد "يقاوم مشيئته"[2].

إذن لماذا لم توجد كل الأشياء إلا بأمر الله، ذلك الأمر الذى به قد وُجد الابن أيضاً (حسب فكرهم)؟ أو فليقولوا: لماذا قد صارت به كل الأشياء بالرغم من أنه هو أيضاً صائر؟ فيالحماقتهم عندما يقولون عنه: "أن الله عندما أراد أن يوجد طبيعة مخلوقة، ورأى عدم قدرتها على احتمال لمسة يد الآب الشديدة، فإنه يصنع ويخلق أولاً واحداً مفرداً فقط، ويسميه ابناً وكلمة، لكن عن طريقه كوسيط، يوجد به كل الأشياء أيضاً" وهم لا يقولون هذا وحسب، بل أيضاً تجاسروا وكتبوه بيد كل من يوسيبيوس وآريوس وأستيرويوس مقدم الذبائح (للأوثان).

25- أليس هذا برهان كافٍ على الكفر الذى مزجوا أنفسهم به بجنون متناهٍ، وهم لا يستحون هكذا من أين يهذوا كالسكارى ضد الحق؟ لأنهم إن كان يؤكدون أن الله قد صنع الابن فقط بسبب تعبه من خلق كل الأشياء الأخرى، فإن كل الخليقة ستصرخ هازئة بهم بإعتبار أنهم يقولون أشياء غير لائقة بالله. أما اشعياء فقد كتب قائلاً: "الله الأبدى الذى صاغ أطراف الأرض لا يجوع ولا يكل. وليس هناك فحص لفهمه"[3]. أما إن كانوا يقولون أن الله يستنكف أن يخلق الأشياء الأخرى، ولهذا فقد صنع الابن فقط، وسلم خلقه الأشياء الأخرى للابن كمساعد، فإن هذا يكون غير لائق بالله

---

[1] يو 3:1.
[2] انظر رو 19:9.
[3] اش 28:40 سبعينية.

لأن ليس عند الله كبرياء. وهؤلاء يخجلهم الرب عندما يقول "أليس عــصفوران يباعــان بــدرهم؟ وواحد منها لا يسقط على الأرض بدون إذن أبيكم"[4] وهو الذى فى الــسموات؟ ويقــول أيــضاً "لا تهتموا لحياتكم ماذا ستأكلون وماذا ستشربون. ولا لأجسادكم ماذا ستلبسون أليست الحياة أفضل من الطعام والجسد أفضل من اللباس. تأملوا طيور السماء. إنها لا تزرع ولا تحــصد ولا تجمــع إلــى مخازن وأبوكم السماوى يقوتها. ألستم أنتم بالحرى أفضل منها؟ ومن منكم إذا اهتم بقدر أن يزيد على قامته ذراعاً واحدة؟ ولماذا تهتمون باللباس؟ تأملوا زنابق الحقل كيف تنمــو، وهــى لا تتعــب ولا تغزل. ولكن أقول لكم أنه ولا سليمان فى كل مجده كان يلبس كواحدة منها. فإن كان عــشب الحقــل الذى يوجد اليوم ويطرح غداً فى الأتون، يلبسه الله هكذا أفليس بالأحرى جداً يلبسكم أنتم يــا قليلــى الإيمان"[5]

فإن لم يكن من غير اللائق بالله أن يعتنى بأصغر الأشياء إلى هذه الدرجة، مثل شعرة الــرأس والعصفور، وعشب الحقل فإنه لا يكون من غير اللائق أن يخلق هذه الأشياء لأن الأشياء التى هــى موضع عنايته، هى نفسها التى يكون هو خالقها بكلمته الذاتى. والذين يقولــون هكــذا ســيواجهون سخافة وبطلاناً شديدين، لأنه يفرقون بين المخلوقات وبين عملية الخلق، بــين عمــل الآب وبــين الأعمال التى أعطيت للابن، بينما من اللازم إما أن تكون كل الأشياء والابن معها قــد خلقــت مــن الآب، وإما – إن كانت كل المخلوقات قد خلقت بالابن – فينبغى ألا يقولوا أن الابن واحد مــن بــين المخلوقات.

26- ومن ثم سيكون من الممكن دحض حماقتهم هكذا: فحتى لو كان الكلمــة مــن الطبيعــة المخلوقة، فطالما يستحيل على هذه الطبيعة أن تتقبل فعل الخلق المباشر مــن الله، فكيــف اســتطاع الابن وحده من بين الجميع أن يُخلق من جوهر الله غير المخلوق والفائق النقاء كما تقولــون أنــتم؟ فالضرورة تقتضى أنه إن كان الكلمة يستطيع ذلك فكل الطبيعة المخلوقة تستطيع ذلك أيضاً. ولكــن إذا لم يكن هذا فى استطاعة كل الطبيعة المخلوقة، فإن الكلمة نفسه أيضاً لا يــستطيع ذلــك لأنــه – حسب فكركم هو واحد من بين المخلوقات.

ومرة أخرى إن كانت الطبيعة بسبب عدم قدرتها أن تحتمل فعل الخلــق المباشــر مــن الله، إحتاجت إلى وجود وسيط، فالكلمة أيضاً لكونه مخلوقاً ومصنوعاً (حسب قولكم) فإنه يكون هو نفسه

---

[4] مت 29:10.
[5] مت 25:6-20.

فى حاجة إلى وسيط لخلقه بسبب كونه واحداً من الطبيعة المخلوقة التى لا تستطيع أن تحتمــل فعــل الله، بل يحتاج إلى وسيط. حتى لو وجد هناك وسيط للكلمة فستكون هناك حاجة رة أخـــرى لوســـيط آخر لهذا الوسيط وهكذا بإستمرار البحث والتنقيب سنجد حشداً عارماً من الوسطاء، وبـــذلك يكـــون من المستحيل أن تقوم للخليقة قائمة. إذ أنها ستحتاج دائماً إلى وسيط، وهذا الوسيط لن يـــستطيع أن يوجد بغير وسيط آخر لأنهم جميعاً من طبيعة مخلوقة وهى التى لا تستطيع – كما تقولون أنـــتم – أن تحتمل فعل الخلق الذى هو عمل الله وحده.

إذن، ما أكثر حماقاتهم إلى تجعلهم يعتبرون الأشياء الصائرة أنها مستحيلة الحدوث. أو ربمـــا يتصورون أنها لم تكن قدوجدت ما داموا لا يزالون يطلبون وسيطاً. لأنه بحسب كفـــرهم وفكـــرهم الغبى لا يكون ممكناً للكائنات أن توجد حيث أنها لا تجد الوسيط.

27- ولكنهم أيضاً يدعون قائلين: "هوذا بواسطة موسى قد أخرج الله الـــشعب مـــن مـــصر، وبواسطته أعطى الشريعة بالرغم من كونه انساناً، حتى يكون ممكنـــاً أن تـــصير الأشـــياء المماثلـــة بواسطة ما يماثلها". فكان ينبغى وهم يقولون هذا أن يخفوا وجوههم من الخجل الشديد، فإن موســـى لم يُرسَل لكى يخلق ولا لكى يدعو إلى الوجود تلك الأشياء التى لم تكن موجودة، ولا لكـــى يـــصوغ أناساً مماثلين له، ولكن فقط لكى يبلغ أقوالاً للشعب وللملك فرعون. فهناك فرق كبير، إذ أن الخدمـــة تخص المخلوقين كعبيد، فى حين أن الخلق والصياغة تخص الله وحـــده وتخـــص كلمتـــه الـــذاتى وحكمته.

من أجل ذلك، ففيما يخص الخلق، لا يوجد من يقوم به سوى كلمة الله فقط، لأن "كل الأشـــياء قد صُنعت بالحكمة"[6]، و "بغير الكلمة لم يكن شئ مما كان"[7]. أما فيما يخص الخدمة، فليس هنـــاك واحد فقط، بل يوجد كثيرون يستطيع الرب أن يرسلهم متى أراد، فهنـــاك كثيـــرون مـــن رؤســـاء الملائكة، وكثيرون ه العروش والسلاطين والـــسيادات، "ألـــوف وربـــوات ربـــوات يقـــدمون لـــه الخدمة"[8]، وهم على استعداد أن يُرسَلوا. وهناك أنبياء كثيرون واثنا عشر رســـولاً وبـــولس، بـــل وموسى أيضاً لم يكن وحده بل معه هرون أيضاً، وبعد ذلك كان معـــه "ســـبعون آخـــرون أمـــتلأوا

---

(6) مز 24:104.
(7) يو 3:1.
(8) أنظر دا 10:7.

بالروح القدس"[9]. وموسى خلفه يشوع بن نون، وهذا خلفه القضاة، وهؤلاء لم يخلفهم واحـــد بـــل ملوك كثيرون.

فلو كان الابن إذن مخلوقا،، وواحداً من المخلوقات لكان من اللازم أن يكـــون هنـــاك أبنـــاء كثيرون مثله، لكى يكون لله أيضاً خدام كثيرون من هؤلاء، كما أن له جمعـــاً غفيـــراً مـــن أولئـــك الآخرين. وإن لم يكن فى الإمكان أن يرى أحد هذا الرأى، فإن الكلمة واحد، لكن المخلوقات كثيـــرة. فمن من هؤلاء لا يفهم أن الابن يتميز عن الجميع، وليس له أى وجه شبه بالمخلوقات، بل هـــو مـــن ذات الآب. من أجل ذلك فلا يوجد عدد كثير من الكلمات، بل هناك كلمـــة واحـــد لـــلآب الواحـــد، وصورة واحدة للإله الواحد. وهم يقولون "ها هى شمس واحدة فقط وأرض واحدة". يـــا لهـــم مـــن حمقى! فليقولوا أيضاً أن الماء واحد والنار واحدة، لكى نجيبهم بقولنا أن كل مخلوق بين المخلوقـــات هو واحد بحسب جوهره الخاص. أما من جهة الخدمة والعمل الموكلين إليـــه فلـــيس كـــل مخلـــوق بمفرده كفاءاً ولا كافياً، لأن الله قال "لتكن لآيات وأوقات وأيام وسنين"[10]. ثم قال "فصنع الله النيرين العظيمين، النيرّ الكبير لحكم النهار والنيّر الأصغر لحكم الليل. والنجوم ثبتها فى جلد السماء لتـــضئ على الأرض فتحكم النهار والليل"[11].

28- ها هى كواكب كثيرة: وليست فقط الشمس وحدها ولا القمر وحده، بل كل منهما واحـــد بحسب جوهره، إلا أن خدمة الكل واحدة ومشتركة وما ينقص الواحد يكمله الآخر. وهكذا يـــشترك الكل فى سد الحاجة إلى النور. فالشمس لديها السلطان أن تظهر فى فترة النهار فقط، والقمر خـــلال الليل، أما النجوم فيتم بها مع الشمس والقمر الفصول والسنين، وتكـــون لآيـــات حـــسب الاحتيـــاج المطلوب من كل منهما. والأرض أيضاً ليست لكل شئ، بل للثمار وحدها، ولكـــى تكـــون أساســـاً للحيوانات التى تمشى عليها أما الجلد فهو الذى يفصل بين مياه ومياه: لكى يكون مكانـــاً للكواكـــب. وهكذا كل من النار والماء قد صارا مع كل الأشياء الأخرى لأجل تكوين الأجسام. وعمومـــاً فلـــيس هناك شئ واحد قائماً بمفرده. بل كل واحد من المخلوقات كما لو كان مع بقية المخلوقات كأعـــضاء بعضها لبعض، فيشكلون العالم معاً كأنه جسد واحد.

فإن كانوا يفترضون أن الابن أيضاً هكذا، فإنهم يستحقون أن يرجموا من جميع الناس. لأنهـــم يظنون أن الكلمة جزء من الكل، جزء لا يكفى بدون الأشياء الأخرى أن يقوم بالخدمة المسلمة لـــه.

---

(9) عدد 25:11.

(10) تك 4:1.

(11) تك 16:1-18.

فإن كان هذا كفر واضح، فدعهم يعترفون أن الكلمة ليس معدوداً بين المخلوقات، بل هو هـو كلمـة الآب الوحيد، الذاتى، وهو خالق المخلوقات ولكنهم قالوا عنه: "إنه مخلوق ومعدود بين المخلوقـات، وقد تعلم فن الخلق كما من معلم وفنىّ، وهكذا خدم الله الذى علّمه". لأ، أستيريوس السفـسطائى قـد تجاسر على كتابة هذه الأقوال مثلما تعلم أن ينكر الرب غير مدرك للحماقة التى تترتب عليها. لأنـه إن كان الخلق شئ ممكن أن يكتسب بالتعليم، فليحذروا أيضاً لئلا يقولوا عن الله نفسه أنه ليس خالقـاً بالطبيعة بل بالتعلّم، فتكون النتيجة أنه ممكن أن يفقد خاصيته كخالق. وعلى ذلك فلو حصل حكمـة الله على الخلق بالتعلم، فكيف يكون حكمة إن كان لا يزال فى حاجة إلى دروس؟ وماذا كـان حالـه قبل التعليم؟ فإن كان ينقصه التعليم فإنه لا يكون حكمة، بل يكون شيئاً فارغاً، وليس حكمة جوهرية، ويكون قد اتخذ اسم الحكمة عن طريق الترقى ويظل هكذا حكمة على مدى الوقت ما دام يحتفظ بمـا قد تعلمه. فالذى لا يُوجد من الطبيعة، بل من التعليم فمن الممكن أيضاً أن يُفقَد فى وقت مـا. ولكـن من يقول مثل هذا الكلام عن كلمة الله فليس من بين المسيحيين، بل من بين الوثنيين.

29- لأنه إن كان عمل الخلق يمكن اكتسابه بواسطة التعليم فإن عديمى العقل هؤلاء ينسبون بذلك الحسد والضعف إلى الله. فمن ناحية ينسبون إليه الحسد لأنه لم يعلّم عمل الخلق لكثيرين، لكـى مثلما يوجد كثيرون من الملائكة ورؤساء الملائكة، هكذا يوجد حوله أيضاً خالقون كثيـرون. ومـن ناحية أخرى ينسبون له الضعف لأنه عجز عن أن يقوم بالخلق وحده، بل احتاج إلى معين أو خـادم وذلك بالرغم من البرهنة على أن الطبيعة المخلوقة يمكن أن توجد من الله وحده، إذ هم يقولـون أن "الابن مخلوق وقد صار من الله وحده". ولكن الله ليس فى حاجة إلى أحد، حاشا لله. لأنه هـو قـال: "إنى ممتلئ"[12]. والكلمة لم يصر خالقاً بل إذ هو صورة الآب وحكمته فإنـه يعمـل أعمـال الآب. والآب لم يجعل الابن من أجل عمل المخلوقات، لأنه هوذا رغم وجود الابن يظل الآب عاملاً أيـضاً كما يقول الرب نفسه "أبى يعمل حتى الآن وأنا أعمل"[13].

فإذا كان الابن قد وُجِدَ – حسبما تقولون – لكى يخلق الأشياء التى جاءت بعده، ومع ذلك يُرى الآب عاملاً حتى بعد وجود الابن، فإن وجود مثل هذا الابن يكون – بحسب قولكم – لا لـزوم لـه. وإلا فلماذا يبحث الآب عن وسيط عندما شاء أن يخلقنا كما لو أن مشيئته لم تكن كافية لخلق ما يبـدو

(12) أش 11:1 سبعينية.
(13) يو 17:5.

له حسناً؟ مع أن الاسفار المقدسة تقول "كل ما شاء صنع"[14] وأيضاً "من يقاوم مشيئته"[15]. فلــو أن مشيئته وحدها كانت كافية لخلق كل الأشياء، فإنه مرة أخرى تكون حاجته لوسيط – وفقــاً لقــولكم – من نافلة القول، ولذا فإن المثل الذى تضربونه عن موسى وعن الشمس والقمر يتضح أنه لا أســاس له. وبناء على ذلك فإن هذا القول يلجم ألسنتكم. فإن كان الله – حــسبما تعتقــدون – عنــدما أراد أن يخلق الطبيعة المخلوقة وقد عقد العزم على ذلك – خطط أن يخلق الابن أولاً لكى يخلقنا بواســطته، فتأملوا وأعتبروا أى قدر من الكفر قد تجاسرتم أن تنطقوا به.

30- فبحسب كلامكم يظهر أولاً أن الابن قد جُعل من أجلنا، ولسنا نحن من أجله، بمعنى أننا لم نخلق لأجله ولكنه هو قد صنع من أجلنا، وبذلك يكون هو مديناً بالفضل لنا ولسنا نحــن المــدينين له، كوضع المرأة بالنسبة للرجل. فالكتاب يقول: "لأن الرجل لم يخلق من أجل المرأة، بل المرأة من أجل الرجل"[16]. ولذلك إذن "فإن الرجل هو صورة الله ومجده، أما المرأة فهى مجــد الرجــل"[17]. وهكذا فنحن صورة الله، وقد صرنا من أجل مجده، أما الابن فيكون – على أساس كلامكــم – هــو صورتنا وأنه وجد من أجل مجدنا، ونحن قد جُعلنا لكى نوجد أما كلمة الله – حسب اعتقادكم – فإنــه لم يُجعل لكى يوجد، بل قد جُعل ليكو أداة لأجل احتياجنا حتى أننا لم نتكون منه بل هو الذى قد تكون من احتياجنا. أليس الذين يفكرون بهذه الافكار يفوقون كل جنون وحماقة؟ لأنه لو أن الكلمة قد صار من أجلنا فلا يكون سابق علينا سوى الله، لأن الله (فى هذه الحالة) لم يخطــط بخــصوص وجودنــا والكلمة موجود فى داخله، ولكنه خطط بخصوص وجود كلمته – كما يقولون ونحن فى داخله. فلــو كان الأمر كذلك، فلربما لم يكن الآب يريد الابن على وجه الإطلاق، لأنه خلقه حسب قولهم، لا لأنه كان يريده بل لأنه كان يريدنا نحن، فقد خلقه من أجلنا، لأنه فكر فيه بعدنا.

لذا فإنه حسب أفكار الكافرين يكون الابن الذى وُجد كأداة، لا لزوم له. لأنه يكون قد خُلِقَ من أجل أولئك الذين وُجدوا، فإن كان الابن وحده قد صار من الله مباشرة بسبب قدرته على إحتمال ذلك أما نحن فلقد صرنا من الكلمة بسبب عدم قدرتنا فلماذا لا يخطط الله بخصوص وجوده أولاً – وهــو القادر (أى الابن) على إحتمال ذلك، بل يخطط بخصوصنا؟ ولماذا لا يُفضَل القــادر علــى غيــر القادرين؟ ولماذا حيث أنه قد صنعه أولاً، لا يخطط بخصوصه أولاً؟ أما إن كان يخطط بخــصوصنا

[14] مز 6:135.
[15] رو 19:9.
[16] 1كو 9:11.
[17] 1كو 7:11.

أولاً، فلماذا لا يصنعنا نحن أولاً، ما دامت مشيئته كفيلة بتكوين الكل؟ بل يخلق ذاك أولاً ومع ذلــك فإنه يخطط أولاً بخصوص وجودنا، ويردينا أولاً قبل الوسيط. وحينما يريــد أن يخلقنـــا ويخطــط بخصوصنا فإنه يسمينا مخلوقات. أما هذا الذى يخلقه من أجلنا فيسميه إبناً ووارثاً ذاتياً. فكان ينبغـــى بالأحرى أننا نحن الذين من أجلنا قد صنعه. أن يمسينا أبناء. ولكن بلا شك فلأنه هو ابنه فإنه يفكــر فيه أولاً ويريده وهو الذى به صنعنا جميعاً. هذه هى تقيؤات الهراطقة وتقززاتهم.

الفصل الثامن عشر

مقدمة لشرح أمثال 22:8

"أن الابن ليس مخلوق (تابع)"

31- لا يجب الصمت عن مبدأ الحق بل فى الواقع ينبغى النطق به بصوتٍ عالٍ، لأن كلمـــة الله لم يصر من أجلنا بل بالحرى نحن قد صرنا من أجله، وبه خلقت كل الأشياء[1]. ولـــيس بـــسبب ضعفنا نحن كان هو قوياً وصائراً من الآب وحده، لكى يخلقنا بواسطته كأداة! حاشا! فـــالأمر لـــيس

---

[1] كو 16:1.

كذلك. لأنه حتى لو لم يستحسن الله أن يخلق المخلوقات، فالكلمة مع ذلك كان عند الله وكان الآب فيه. وفى نفس الوقت كان من المستحيل أن تكون المخلوقات بغير الكلمة لأنها قد صارت به – وهذا هو الصواب.

وحيث أن الإبن هو الكلمة ذاته حسب الطبيعة الخاصة بجوهر الله، وهو منه وهو فيه كما يقول هو نفسه، لذلك لم يكن ممكناً أن تصير المخلوقات إلا به. لأنه مثلما يضئ النور كل شئ بأشعته وبدون إشعاعه ما كان شئ قد أضاء – هكذا أيضاً فإن الآب خلق كل الأشياء بالكلمة كما بواسطة يد، وبدونه لم يخلق شيئاً.

فعلى سبيل المثال كما ذكر موسى "قال الله ليكن نور"[2]، و "لتتجمع المياه"[3] و "لتنبت الأرض"[4] و "لنصنع الإنسان"[5]. وترنم أيضاً داود القديس "هو قال فصارت هو أمر فخلقت"[6]. أما أنه "قال" فليس كما يحدث فى حالة البشر أن يستمع خادم ما وبمجرد علمه بمشئته المتكلم يسارع إلى التنفيذ والعمل، لأن هذا يختص بالمخلوقات. أما بالنسبة للكلمة فإنه لا يليق أن يفكر أحد هكذا عنه. لأن كلمة الله خالق وصانع وهو نفسه مشيئة الآب. من أجل هذا لم يقل الكتاب الإلهى بأن المستمع سمع وأجاب فيما يخص الكيفية التى يريد أن تكون عليها المخلوقات، بل قال الله "ليكن" ثم أضاف "وكان هكذا"[7].

لأن ما رآه الله حسناً وأراده، فعله الكلمة وأتمه فى الحال. أما عندما أمر الله آخرين سواء ملائكة أو عندما كلم موسى، أو عندما أمر ابراهيم، عندئذ فإن الذى إستمع اجاب. فقال الواحد "كيف سأعرف"[8]. وقال الآخر: "أقم آخر"[9] وأيضاً "عندما يسألوننى ما إسمه فماذا سأقول لهم"[10]. وقال الملاك لزكريا "هكذا يقول الرب"[11]. وسأل الملاك الرب "يا رب يا ضابط الكل الى متى لا ترحم

(2) تك 3:1.
(3) تك 9:1.
(4) تك 11:1.
(5) تك 26:1.
(6) مز 9:33.
(7) تك 3:1،6،11،15.
(8) تك 8:15.
(9) خر 13:4.
(10) خر 13:3.
(11) زك 17:1.

أورشليم"[12]، وكان ينتظر أن يسمع "كلمات طيبة ومعزية"[13] لأن كل واحد من هؤلاء يوجد عنـده الكلمة الوسيط وحكمة الله العارف بمشيئة الآب. ولكن عندما الآب يعمل والإبن يخلق فلـن يكـون هناك سؤال وجواب – لأن الآب موجود فى الكلمة والكلمة فى الآب – بل تكفـى المـشيئة فيـصير العمل. ولفظة "قال" هذه من أجلنا لكى نعرف مشيئته. ومن ناحية أخرى فعبارة "كان هكـذا" تـشير إلى العمل الذى تم بواسطة الكلمة والحكمة، وهو الحكمة الذى فيه أيضاً توجد مـشيئة الآب. ونفـس التعبير "قال الله" يشير إلى الكلمة لأنه يقول "صنعت كل الأشياء بالحكمة"[14] و "بكلمة الـرب ثبتـت السموات"[15]. و"رب واحد يسوع المسيح الذى صارت به جميع الأشياء ونحن به"[16].

32- من هذا إذن ندرك أن الآريوسيين لا يجاوننا من أجل هـرطقتهم، بـل يـستعرضون أنفسهم أمامنا وهم يحاربون الألوهية ذاتها. لأنه إن كان الصوت القائل "هذا هو إبنى"[17] هو صوتنا لكان اللوم الذى يستحقونه منا قليل. ولكن إن كان الصوت هو صوت الآب والتلاميذ سمعوه، والإبن نفسه أيضاً يقول عن ذاته "قبل كل الجبال ولدنى"[18]، ألا يكونون بهذا يحاربون الله مثـل العمالقـة الأسطوريين ولسانهم نحو عدم التقوى "سيف ماضٍ" كما يقول المرنم. لأنهم لم يخافوا صوت الآب، ولم يحترموا كلمات المخلص، ولم يطيعوا القديسين، حيث كتب أحدهم "الذى هو بهاء مجده ورسـم جوهره"[19]. و"المسيح قوة الله وحكمة الله"[20] وترنم آخر "لأن عندك ينبوع الحياة، وبنـوك نـرى نوراً"[21] و "كلها بحكمة صنعت"[22]. ويقول الأنبياء "كلمة الرب صارت إلىّ"[23]. ويقـول يوحنـا "فى البدء كان الكلمة"[24] ويقول لوقا "مثلما سلمه إلينا الذين صاروا منـذ البـدء معـاينين وخـداماً

---

(12) زك 12:1.
(13) زك 13:1.
(14) مز 24:104.
(15) مز 6:33.
(16) 1 كو 6:8.
(17) مت 5:17.
(18) أم 25:8.
(19) عب 3:1.
(20) 1كو 24:1.
(21) مز 9:36.
(22) مز 24:104.
(23) أر 4:1.
(24) يو 1:1.

للكلمة"[25]. كما يقول داود أيضاً "أرسل كلمته فشفاهم"[26]. وكل هـذه الأقـوال تفـضح الهرطقـة الآريوسية فى كل مكان، بل توضح أزلية الكلمة، وأنه من جوهر الآب وليس غريباً عنه. لأنه متـى رأى أحد نوراً بغير إشعاع؟ أو من يجرؤ أن يقول أن "رسم الجوهر شئ آخر غيـر الجـوهر"؟ وألا يكون قد أصيب بالجنون بدرجة كبيرة ذلك الذى يفكر أيضاً بأن الله كان فى وقت ما بلا كلمـة وبـلا حكمة؟.

لأن الكتاب وضع مثل هذه الأمثلة، ومثل هذه الصور - نظراً لعجز الطبيعة البـشرية عـن إدراك الله، وذلك لكى يمكننا أن نكّون فكرة ولو طفيفة وباهتة بقدر المستطاع. كما أن الخليقـة فيهـا أمثلة كافية لمعرفة وجود الله وعنايته، "لأنه بقدر عظمة وجمال المخلوقـات، هكـذا يُـرى خالقهـا بطريقة المقايسة"[27]. ونحن نتعلم من المخلوقات بدون أن نطلب منها أصواتاً، بل إذ نسمع الكتـب المقدسة فإننا نؤمن، وبرؤيتنا لنظام جميع الأشياء وإنسجامها فإننا نعـرف أن هـذا خـالق جميـع الكائنات وربها وإلهها. ندرك عنايته المذهلة وسيادته على الكل. وهكذا نفس الحال بالنسبة لألوهيـة الأبن، فإن ما سبق ذكره من أقوال يكفى كشاهد على ألوهيته. فيكون من نافلة القول أو بالأحرى من الجنون أن يشك أحد، ويسأل بطريقة هرطوقية: كيف يمكن أن يكون الابن أزلياً؟ أو كيف يمكـن أن يكون من جوهر الآب وليس جزءاً منه؟ لأن ما ينتج من شئ يعتبر جزءاً منه، وما يمكن تقـسيمه لا يكون كاملاً.

33- هذه هى أفكار الهراطقة الشريرة ومغالطاتهم بالرغم من أننا سـبق أن توصـلنا إلـى دحض ما فى تعاليمهم من هراء. فإن دقة هذه الأقوال والأمثال تدحض مجمل عقيدتهم النكراء. لأننا نرى أن الكلمة موجود دائماً، ووجوده هو من الآب ومن جوهره وليس عنده سابق ولاحق. ونـرى أيضاً أن الإشعاع هو من الشمس وهو جوهره وليس عنده سابق ولاحق. ونرى أيضاً أن الإشـعاع هو من الشمس وهو خاص بها، وأن جوهرها لا ينقسم ولا يُنتقص، بل هو كامل. والإشعاع بالغ حد الكمال والتمام بغير أن يُنتقص جوهر النور، بل أنه مولود حقيقى منه. وبالمثل فإنن نرى أن الابـن ليس من خارج الآب، بل هو مولود منه وأن الآب يبقى كاملاً و"رسـم جـوهره"[28] كـائن دائمـاً ومحتفظاً بمشابهة الآب ومطابقة صورته حتى أن من يراه يرى فيهالجوهر الذى هو رسم له. ومـن

---

[25] **لو 2:1.**
[26] **مز 20:107.**
[27] **حكمة 5:13.**
[28] **أى الابن انظر عب 3:1.**

عمل الرسم ندرك ألوهية الجوهر الحقيقة. لأن هذا هو ما علّم به المخلص نفسه عنـــدما قـــال "الآب الحال قى هو يعمل الأعمال التى أنا أعملها"[29]، و"أنا والآب واحـــد"[30]، و "أنـــا فـــى الآب والآب فىّ"[31].

لذلك فلندع الهرطقة المحاربة للمسيح تحاول أولاً أن تفصل الأمثلة الموجودة فى المخلوقات، وتقول أن الشمس كانت يوماً بدون إشعاع، أو أن هذا الإشعاع ليس من ذات جوهر النور، أو أنه من ذاته ولكنه – بمنطق التجزئة – يعتبر جزءاً من النور. ودع الهرطقة أيضاً تفصل الكلم وتقـــول أنـــه غريب عن العقل، أو أنه كان هناك وقت ما لم يكن فيه موجوداً، أو أنه ليس من جوهره الـــذاتى، أو أنه جزء من العقل قابل للتجزئة. أما بالنسبة إلى "الرسم" و"النور" و "القوة" فـــدع الهرطقـــة هكـــذا تفصلها كما فعلت بالنسبة "للكلمة" و"الإشعاع"، وعندئذ فلتتخيل بخصوصها كما تشاء. فإن كان مثـــل هذا التهور مستحيلاً عليهم فكيف لا يكون من الجنون المطبق أن يقحموا أنفسهم عبثاً فيما هو أســـمى من الأشياء المخلوقة وأعلى من طبيعتها، وهم بذلك يحاولون المستحيلات؟.

34- لأنه إن كانت الأشياء المخلوقة والجسدية لها مواليد دون أن تكون أجزاء من الجـــواهر التى تولدت منها، وهى لا توجد عن طريق الألم ولا تنتقص من جواهر والديها، فكيف لا يكونـــون قد أصيبوا بالجنون وهم يتصورون وجود التجزئة والآلام فى إله حقيقـــى غيـــر جـــسدى ناســـبين الانقسام إلى إله غير متألم وغير متغير لكى يبلبلوا مسامع البسطاء ويضلوهم عن الحق؟.

لأن من ذا الذى يسمع كلمة ابن ولا يتبادر إلى ذهنه أنه من ذات جوهر الآب؟ ومن – عنـــدما سمع أثناء تعلمه أصول الإيمان فى المرحلة الأولى أن الله له ابن وأنه قد صنع كل الأشياء بواســـطة كلمته الذاتى – لم يدرك هذا الأمر بنفس الطريقة التى نفهم بها نحن الآن. ومن – عند ظهور هرطقة الأريوسيين الشائنة – لم يندهش حالما سمع ذلك الكلام الذى يقولونه، حيث أنهـــم يـــرددون كلامـــاً مخالفاً للحق وينفثون تعاليماً مغايرة لتلك التعاليم التى سبق بذرها منذ البداية؟ لأن ما بُذر منذ البدايـــة فى كل نفس هو أن الله له ابن وهو الكلمة، والحكمة، والقوة، وهو صورته وبهاؤه، وتبعاً لهـــذا فهـــو مودود دائماً، وأنه هو من الآب وأنه المماثل، وأنه له أزلية الولادة من الجوهر، ولا توجد هنـــا أيـــة فكرة عن كونه مخلوقاً أو مصنوعاً. ولكن "الانسان العدو بينما الناس نيام"[32]، زرع أنه "مخلـــوق"،

---

[29] **يو 12،10:14.**
[30] **يو 30:10.**
[31] **يو 10:14.**
[32] **مت 25:13.**

وأنه "كان هناك وقت عندما لم يكن موجوداً"، وأنه "كيف يمكن أن يكون"؟ وعندئذ انتشرت هرطقـة أعداء المسيح الأثيمة حالاً كالزوان وهى خالية من كل فكر قويم، وصاروا يطوفون مثل لـصوص ويتجاسرون أن يقولوا "كيف يمكن أن يكون الابن موجوداً مـع الآب علـى الـدوام؟" لأن النـاس يصبحون أبناء من الناس بعد مضى فترة من الزمن. وإذ يبلغ الآب ثلاثين عاماً يبدأ الابـن عندئـذ ميلاده. وعلى العموم كل إبن انسان لم يكن له وجود قبل أن يولد. ومرة يهمسون: "كيـف يمكـن أن يكون الابن كلمة، أو أن يكون الكلمة صورة الله؟ لأن كلمة الناس تتركب من مقاطع وتدل فقط علـى مشيئة المتكلم، ثم تتوقف وتتلاشى فى الحال؟.

35- إن أولئك إذن – كما لو كانوا قد نسوا البراهين التى سبق أن قيلت ضدهم – يورطـون أنفسهم أيضاً فى قيود الكفر وعدم الإيمان شاغلين عقولهم بمثل هذه الأفكار. ولكـن كلمـة الحـق تدحضهم هكذا:

إن كانوا يجادلون بخصوص انسان ما، فدعهم يفكرون بطريقة بشرية بخصوص كلمـة هـذا الانسان وبخصوص ابنه. أما إن كانوا يفكرون بخصوص الله خالق البشر فدعهم لا يتفكـرون بعـد فى هذا الأمر بطريقة بشرية، بل بطريقة أخرى أعلا من طبيعة البشر. لأنه مثلما يكون الـذى يلـد، هكذا يكون بالضرورة المولود منه أيضاً. ومثلما يكون "أب الكلمة" هكذا يكون أيضاً كلمته. وعلـى هذا فيما أن الانسان يولد فى وقت ما، فهو نفسه يلد ابنه أيضاً فى وقت ما. وحيث أن الانـسان قـد وُجد من العدم، لذلك فإن كلمته تتوقف ولا تبقى. أما الله فهو لـيس كالانـسان لأن هـذا مـا قالـه الكتاب[33]. لكنه "هو الكائن"[34]. وهو الموجود دائماً، ولهذا فإن كلمته أيضاً كائن وأزلى مع الآب مثل إشعاع النور.

وكلمة البشر تتركب من مقاطع وهى لا تحيا ولا تعمل شيئاً، بل تعبر فقـط عـن قـصد المتكلم. وبمجرد أن تخرج من الفم تضيع ولا تظهر بعد حيث أنها لم تكن موجودة إطلاقاً قبـل أن يُنطَق بها، ولهذا فهى لا تحيا ولا تعمل شيئاً. وهى ليست انساناً إطلاقاً. بل يحدث لها هذا – كما سبق أن قلت – لأن الانسان الذى ولدها طبيعته نفسها هى من العدم. أما كلمة الله فهو لـيس مجرد كلمة منطوقة مثلاً قد يقول أحد، ولا هو همس كلمات. وليس "الابن" هو أمر صادر مـن الله، بل هو كإشعاع النور مولود كامل من كامل. ولهذا فهو الله كما أنه صورة الله. لأنه مكتوب

[33] أنظر يهوديت 16:8.
[34] انظر خر 14:3.

"وكان الكلمة الله"[35]. فى حين أن كلام البشر لا يستطيع أن يعمل شيئاً، ولهذا فــإن الانــسان لا يعمل بواسطة الكلمات، بل بيديه. لأن يديه لهما وجود أما كلمته فليس لها وجود فعال. لكن كلمة الله يقول الرسول: "كلمة الله حيّ وفعال. وأمضى من كل سيف ذى حدين – وخارق إلى مفــرق النفس والروح والمفاصل والمخاخ ومميز لأفكار القلب ونياته. ولا توجد خليقــة غيــر ظــاهرة أمامه، بل كل شئ مكشوف وعريان لعينى ذاك الذى نقدم لــه الحــساب"[36]. فهــو إذن خــالق "وبغيره لم يكن شئ واحد"[37]، ولا يمكن أن شيئاً يكون بدونه.

36- فلا ينبغى إذن أن يتساءل أحد: لماذا لا يكون كلمة الله مثل كلمتنا نحــن؟... لأن الله ليس مثلنا كما سبق القول. بل لا يجب التساؤل: كيف يكون الكلمة من الله؟ أو كيف يكــون هــو إشعاع الله؟، أو كيف الله يلد، وما هى طريقة ولادته؟ فإن من يجرؤ على مثل هذه الأقوال يكون مجنوناً. لأن هذا الأمر لا ينطق به، وهو خاص بطبيعة الله، ومعروف له ولابنه فقــط لأن مــن يسأل هكذا إنما يطلب تفسيراً بالكلام. لأنه يشبه من يسأل "أين الله"؟ وكيف يكون الله؟، وما هــو نوع طبيعة الآب؟ وكما أن مثل هذه الأسئلة تدل على عدم تقوى، وعلى جهل بالله، هكــذا فإنــه ليس من اللائق التجاسر بمثل هذه الأقوال عن ميلاد ابن الله، ولا أن يقاس الله وحمته بطبيعتنــا وعجزنا.

ولا يحق لأحد أن ينحرف بفكره بعيداً عن الحق. وإن كان أحد يرتبك وهو يفتش ويبحث فى هذه الأمور، فلا يجب أن ينكر المكتوب. لأنه من الأفضل فى حالة الارتبــاك أن نــصمت ونؤمن، بدلاً من ألا نؤمن بسبب هذه الحيرة. ذلك لأن الذى يتحير يستطيع بطريقة ما أن يجــد غفراناً طالما أنه قد هدأ كلية بعد أن تساءل. أما ذلك الذى – بسبب حيرته – يفكر فى نفسه تلــك الأفكار غير الملائمة، ويتكلم عن الله بأمور لا تليق به، فإن إدانته تكون بغيــر مغفــرة بــسبب تطاوله.

لأنه فى مثل هذه الارتباكات يمكن للشخص أن يجد بعض الراحة من الكتب الإلهية إلــى أن يستوعب تلك الأقوال المكتوبة استيعاباً صحيحاً وأن يتفهم الكلام الذى قلناه كمثال. لأنه كمــا أن مثل هذا القول هو قولنا ونابع منا وليس عملاً ناتجاً من خارجنا، هكذا بالمثل أيضاً كلمــة الله

---

[35] يو 1:1.
[36] عب 12:4، 13.
[37] يو 3:1.

هو من ذات الله ونابع منه، وليس مصنوعاً، ومع ذلك فهو ليس مثل كلمة البشر، حيث أنه فـــي هذه الحالة سنضطر أن نفهم الله كإنسان.

لاحظ إذن أن كلام الناس كثير ومختلف ويزول كل يوم بسبب أن الكلام السابق لغيــره لا يبقى بل يتلاشى. وهذا يحدث لأن الناطقين بهذا الكلام هم بــشر وأعمــالهم زائلــة، وأفكــارهم تتلاحق وتتتابع. وهم ينطقون الكلام وفقاً للأفكار التى يفكرون بها ويتدارسونها أولاً بأول إلى أن يكون لديهم كلمات كثيرة، ولكن بعد هذه الكلمات الكثيرة لا يتبقى منه شئ إطلاقاً، لأنه بمجــرد أن يكف المتكلم عن الكلام فسرعان ما يتلاشى. أما كلمة الله فهو واحد، وهو هو نفسه، كما هــو مكتوب "كلمة الله تثبت إلى الأبد"[38]. دون أن يتغير، وليس هو سابقاً أو لاحقاً لغيره، بل يبقــى كما هو على الدوام. لأنه من المناسب، بما أن واحد فإن صورته أيضاً تكون واحــدة، وكلمتــه أيضاً واحد، وكذلك أيضاً حكمته واحدة.

37- ولهذا فإنى أتعجب أنه طالما أن الله واحد، فكيف يدخل هؤلاء صــوراً، وحكمــات، وكلمات متعددة بحسب بدعهم واختراعاتهم، ويصرون على أن كلمة الآب الذاتى بالطبيعــة هــو غير الابن، وأنه بالكلمة قد صنع الابن أيضاً، أما من هو ابن بالحقيقة فيقولون عنه أنــه كلمــة بالاسم فقط، مثلما قيل أنه كرمة، وطريق، وباب وشجرة حياة. ويتشدقون أيضاً أنه يلقب بالحكمة بالاسم فقط، وأن حكمة الآب هو حقيقة ذاتية أخرى مصاحبة له فى الوجود بغي ولادة. والــذى عن طريقه صنع الابن ودعاه حكمة أيضاً بحسب مشاركته فى الحكمة. وهم لا يقتــصرون فـــى هذا على كلمات فقط، بل نجد أن أريوس صنّف شعراً فى كتابه "ثاليا"، وأستيريوس السفــسطائى كتب ما سبق أن ذكرناه هكذا: (لم يقل بولس المبارك أنه كرز بالمسيح قوة الله وحكمة الله، بـــل "قوة لله وحكمة لله"، بدون أداة تعريف، وكرز أن قوة الله الذاتية شئ آخر، وهى قوته الطبيعيــة الموجوده معه بغير ولاده، وأنها هى التى ولدت المسيح وخلقت العالم كله. وبخصوصها يعّلم فى رسالته إلى أهل رومية ويقول "لأن أموره غير المنظورة تُرى بوضوح منذ خلق العالم مدركــة بالمصنوعات قدرته السرمدية وألوهيته".. وكما أنه لا يستطيع أحد أن يقول أن الألوهية المــشار إليها هنا هى المسيح، بل هى ذات الآب، كذلك أظن أن قوته السرمدية وألوهيته ليست هى الابن الوحيد الجنس، بل الآب الذى ولده). ويعلم أنه توجد قوة أخرى وحكمة أخرى لله، وأنهــا هـــى التى تتضح من خلال المسيح. وبعد قليل يقول استيريوس نفسه: (إن قوته السرمدية وحكمته التى

---

[38] مز **89:119**.

تعبَّر عنها التأملات الحقيقة أنها بلا بداية، وأنها غير مولودة هى حتماً واحدة بذاتها. لأنه توجد قوات كثيرة قد خُلقت واحدة فواحدة بواسطة الله، والتى من بينها المسيح هو البكر والوحيد الجنس، وجميعها – بطريقة مماثلة – تعتمد على من يمتلكها. فجميعها تدعى بحق قواته المخلوقة التى يستخدمها، كما يقول النبى أن الجراد الذى أرسل من الله بسبب الخطايا البشرية قد سماه الله ليس قوة، بل "قوة عظيمة"[39]. والمطَّوب داود فى كثير من مزاميره يحث ليس الملائكة فقط، بل القوات لتسبح الله)[40].

38- والآن ألا يكونون مستحقين لكل مقت لمجرد قولهم هذا؟

لأنه إن كان هو – بحسب ما يعتقدون – ليس ابناً بسبب ولادته من الآب ومن ذات جوهره، بل يسمى كلمة بسبب الأشياء المدركة، ويسمى حكمة بسبب الأشياء التى نالت حكمة، ويسمى قوة بسبب الأشياء التى اكتسبت قوة، فإنه بالتالى ينبغى أن يسمى ابناً بسبب أولئك الذين نالوا البنوة. وربما حتى وجوده يكون بسبب الأشياء التى لها وجود، وذلك بحسب بدتهم.

إذن، فمن يكون هو هذا؟ لأنه لن يكون هو واحداً من هذه الأشياء، حتى لو كانت هذه الأشياء هى أسماء له فقط، وكان له وجود خيالى فحسب، وكانت هذه الأسماء قد أضيفت عليه بواسطتنا. بل بالحرى فإن هذا يعتبر حماقة شيطانية قصوى، وربما أكثر من ذلك، لأنهم يريدون أن يكونون هم أنفسهم موجودين حتماً بينما يظنون أن كلمة الله هو موجود بالاسم فقط. فكيف لا تكون أقوالهم هذه عبارات متناقضة إذ يقولون أن الحكمة هى المسيح؟ ويقولون إنه توجد قوات خالقة وحكمات كثيرة، وأن الرب هو واحد من بين هذه، وهم يقارنونه "بالدودة"، و"الجرادة"؟ وأيضاً أليسوا خبثاء إذ أنهم حينما يسمعون منا أن الكلمة موجود مع الآب، فإنهم يتذمرون محتجين ويقولون "ألستم بذلك تتحدثون عن اثنين غير مخلوقين؟ وهم أنفسهم عندما يتحدثون عن "حكمته غير المخلوقة" لا يرون أن الاتهام الباطل الذى يوجهونه ضدنا إنما يتجه ضدهم؟.

فكيف إذن، لا تكون بدعتهم هذه حماقة بالغة أيضاً، وهى التى بمقتضاها يقولون أن "الحكمة غير المخلوقة" الموجودة مع الله هى الله نفسه؟ فإن الذى يشترك فى الوجود، لا يشترك فى الوجود مع نفسه، بل مع شخص ما، مثلما يقول البشيرون عن الرب أنه كان موجوداً مع التلاميذ، لأنه لم يكن موجوداً مع نفسه، بل مع التلاميذ، إلا إذا كانوا يقولون أن الله مركب، أى أن لديه حكمة

---

[39] أنظر يوئيل 25:2.
[40] أنظر مز 21:103.

مختلطة به، أو متممة لجوهره، وهى أيضاً غير مخلوقة مثله ويقدمونها بدلاً من خالق الكون، وذلـــك لكى يُسقطِوا عن الابن خاصة الخلق. لأنهم يتلاعبون بكل الأمور لكـــى لا يفكـــروا عـــن الـــرب بإستقامة.

39- فأين وجدوا فى الكتاب الإلهى إطلاقاً، أو ممن سمعوا أنه يوجد كلمـــة آخـــر وحكمـــة أخرى غير الابن نفسه، لكى يشكلوا مثل هذه الأقوال فى مخيلتهم؟ لأنه مكتوب "أليس كلمتى كنـــار، وكمطرقة تحطم الصخر"[41]. وجاء فى سفر الأمثال "سأعلمكم كلماتى"[42]. فإن هذه وصايا وأوامر قد تكلم بها الله للقديين عن طريق كلمته الذاتى، الوحيد، الحق، والتى بخـــصوصها يقـــول المـــرنم "منعت قدمى عن كل طريق شر لكى أحفظ كلامك"[43]. وقد أوضح المخلص أن هذه "الكلمات" هـــى شئ آخر غيره هو ذاته، وذلك حينما يقول بنفسه "الكلام الذى أنا كلمتكم به"[44]. فليست إذن مثل هذه "الكلمات" مواليد أو أبناء، ولا توجد كلمات خالقة بمثل هذا العدد، ولا صور للإله الواحد بمثل هـــذا العدد. وليس كثيرون صاروا بشراً من أجلنا، وليس من بين العدد الكثير واحد صار جسداً بحـــسب يوحنا، بل إن يوحنا بشر به ككلمة الله الوحيد قائلاً: "الكلمة صار جسداً" و "كل شئ به كان"[45].

لهذا فإن شهادة الآب التى تؤكد أن الابن واحد، وشهادة القديسين الذين فهموا هذا ويقولون أن الكلمة واحد ووحيد الجنس، هذه الشهادات تشير إلى ربنا يسوع المسيح بمفرده وإلـــى وحدتـــه مـــع الآب، وأن الأعما التى قد صارت به إنما تشهد بنفس الأمور لأن "كل الأشـــياء" المنظـــورة وغيـــر المنظورة "به كانت وبغيره لم يكن شئ مما كان"[46].

إنهم لا يفكرون عن شخص آخر أو شخص مغاير، بل هم يصورون لأنفسهم كلمات وحكمات لم يشر الكتاب لا إلى إسمها ولا إلى عملها، بل هم وحدهم الذين يطلقـــون علـــيهم هـــذه الأســـماء. ويخترعون أفكاراً وظنوناً معادية للمسيح ويسيئون استخدام اسم "الكلمة" و "الحكمة". وإذ يـــصورون لأنفسهم أفكاراً أخرى ينكرون كلمة الله الحقيقى وحكمة الآب الحقيقية الفريدة. وهكذا فـــإن هـــؤلاء التعساء يسيرون فى إثر خطوات المانويين، ذلك لأنهم وإن كانوا يرون أعمال الله فـــإنهم ينكـــرون

---

[41] أر **29:23**.
[42] أم **23:1**.
[43] مز **101:119**.
[44] يو **63:6**.
[45] يو **14:1**، يو **3:1**.
[46] يو **3:1**.

الإله الكائن الوحيد والحقيقى، ويصورون لأنفسهم إلهاً آخر لا يستطيعون إثباته بأى عمل ولا بأية شهادة من الأقوال الإلهية.

40- فإن لم يكن هناك فى الأقوال الإلهية حكمة أخرى غير هذا الابن، وإن كنا لم نسمع من الآباء شيئاً مثل هذا، بل هم قد اعترفوا وكتبوا أن الحكمة موجودة أزلياً مع الآب حيث أنها هى وجوده الذاتى وخالقة العالم هذه – حسبما يقول الآباء – يلزم أن تكون هى الابن نفسه، وهو الموجود مع الآب أزلياً. فهى أيضاً خالقة كما هو مكتوب "صنعت كل الأشياء بالحكمة"(47). ولأن استيرويوس نفسه – كما لو كان قد نسى ما سبق أن كتبه – فإنه فيما بعد – ودون أن يقصد مثلما فعل قيافا أيضاً – وقف ضد اليونانيين، ولم يتكلم عن حكمات كثيرة ولم يسمها دودة، ولكنه إعترف بحكمة واحدة فقط عندما كتب ما يلى: "واحد هو الكلمة الإلهى، أما الكائنات العاقلة فهى كثيرة. وواحد هو جوه الحكمة وطبيعتها، أما الأشياء الحكيمة والحسنة فهى كثيرة" وبعد قليل يقول أيضاً: "من هم أولئك الذين يستحقون أن يلقبهم هؤلاء بلقب أبناء الله؟ فهم طبعاً لا يقولون عنهم أنهم كلمات ولا أنه توجد حكمات أكثر، فإن هذا غير ممكن إذ أن الكلمة واحد. وقد ثبت أن الحكمة واحدة، ولا يكن أن يوزع "جوهر الكلمة" على عدد كثير من الأبناء ولا أن يعطى لهم لقب "الحكمة".

إذن فليس من المستغرب أبداً أن يحارب الآريوسيون ضد الحق. فإنهم يصطدمون ببعضهم بعضاً، إذ تتعارض أفكارهم فيما بينها. فأحياناً يقولون أن الحكمات كثيرة، وأحياناً أخرى يقولون أن الحكمة واحدة. وأحياناً يوحدون بين الحكمة والدودة، وأحياناً أخرى أنها موجودة مع الآب وأنها من ذاته. وأحيانا أخرى أن الآب واحد غير مخلوق. ومرة أخرى يقولون أن حكمته وقوته أيضاً غير مخلوقتين. وهم يحاربوننا لأننا نقول أن كلمة الله موجود دائماً، بينما هم أنفسهم يقولون أن الحكمة موجودة مع الله أزلياً، ويتناسون أقوالهم نفسها. وهكذا يعانون من الدوار فى كل الأمور ذلك لأنهم إخترعوا ما لا وجود له وأنكروا الحكمة الحقيقية، مثلما فعل المانويون الذين إبتدعوا لأنفسهم إلهاً آخر وأنكروا الله الكائن حقيقة.

41- لكن فلتسمع الهرطقات الأخرى وليسمع المانويون أن أب المسيح هو واحد، وهو رب الخليقة وصانعها بكلمته الذاتى. وعلى وجه الخصوص فليسمع أصحاب الجنون الأريوسى أن كلمة الله هو واحد، وهو الابن الوحيد والذاتى الحقيقى الذى هو من جوهره، وله وحدة الألوهية مع أبيه بلا انفصال كما قلنا مراراً وتكراراً. لأننا تعلمنا هذا من المخلص نفسه. ولو لم يكن الأمر كذلك

(47) مز **24:104.**

فلماذا يخلق الآب بواسطته ويعلن نفسه بواسطته للذين يريدهم والذين ينير عليهم؟ أو لماذا يسمى باسم الابن مع الآب عند إتمام المعمودية؟ فإن قالوا أن الآب غير كافٍ بذاته فيكون هذا التعبير كفراً، أما إن كان كافياً بذاته (لأنه من الصواب قول هذا) فما هو الاحتياج للابن لخلق العالم أو لإتمام المعمودية المقدسة؟ لأنه أية مشاركة هناك بين المخلوق والخالق؟ ولماذا يحسب المخلوق مع الخالق عند إنجاز كل الأشياء؟ أو لماذا تقولون أن الإيمان بخالق واحد وبمخلوق واحد هو إيمان مسلم لنا؟ لأنه إن كان الأمر هكذا لكى نتحد نحن بالألوهية فما الحاجة إلى المخلوق؟ أما إن كان هذا بغرض أن نتحد مع الابن – وهو مخلوق حسب قولكم، يكون من غير اللازم – وفقاً لمعتقداتكم – ذكر اسم الابن عند اتمام المعمودية، لأن الله الذى تبناه وجعله ابناً قادر أن يتبنانا ويجعلنا أبناء. ومن جهة أخرى فإن كان الابن مخلوقاً – ولأن طبيعة المخلوقات العاقلة هى واحدة – فليس باستطاعة مخلوق أن يقدم أية معونة لمخلوق آخر، حيث أن الجميع محتاجون لنعمة الله.

لقد تكلمنا فيما سبق عن الآية: "كل شئ به كان". وحيث أن سياق الحديث قد جعلنا نتحدث عن المعمودية المقدسة، فمن الضرورى أن نقول –كما اعتقد وأؤمن – أن اسم الابن يسمى مع الآب ليس ببساطة ولا مصادفة. وذلك ليس لأن الآب غير كافٍ بذاته، بل حيث أن الابن هو كلمة الآب وحكمته فإنه موجود دائماً مع الآب، لأنه هو بهاؤه. لهذا فمن المستحيل عندما يعطى الآب نعمة ألا يعطيها بالابن، لأن الابن موجود فى الآب مثلما يوجد الشعاع فى الضوء. وذلك ليس لأن الله معوز أو ضعيف، بل كأب "قد أسس الأرض بحكمته"[48]، وصنع كل الأشياء بالكلمة المولود منه، ويختم على المعمودية المقدسة بالابن. وحيث يكون الآب هناك يكون الابن أيضاً، كما أنه حيث يكون النور هناك أيضاً يكون الشعاع. وأى عمل يعمله الآب فإنه يعمله بالابن، ويقول الرب نفسه "ما أرى الآب يصنعه أصنعه أنا أيضاً"[49]. وهكذا أيضاً عندما تُعطى المعمودية فإن من يعمده الآب يعمده الابن أيضاً، ومن يعمده الابن فهذا يتم بالروح القدس.

وأيضاً عندما تنير الشمس قد يقول شخص أن الشعاع ينير، وذلك لأن النور واحد ولا يمكن أن يتجزأ ولا أن ينفصل الشعاع عنه. وهكذا أيضاً حيث يكون الآب أو يسمَّى، هناك قطعاً يكون الابن، وحيث أن الآب يسمَّى فى المعمودية، فبالضرورة أن يسمَّى الابن أيضاً معه.

---

(48) أم 19:3.
(49) أنظر يو 19:5.

42- ولذلك أيضاً عندما وعد القديسين تكلم هكذا: "إليه نأتى – أنا والآب – وعنــده نــصنع منزلاً"[50]. وأيضاً "لكى يكونوا هم أيضاً واحداً فينا.. كما أننى أنا وأنت واحد"[51]. والنعمة المعطـــاة هى واحدة، وهى معطاة من الآب بالابن كما يكتب بولس فى كل رسالة "نعمة لكم وســلام مـــن الله أبينا والرب يسوع المسيح"[52]. لأنه يلزم أن يكون النور مع الفجر وأن يشاهَد الــشعاع فـــى نفـس الوقت مع نوره الخاص به. واليهود كذلك إذ أنكروا الابن فليس لهم الآب أيضاً، لأنهم تركوا "ينبوع الحكمة" كما قال باروخ[53] موبخاً إياهم، وأبعدوا عن أنفسهم الحكمة النابعة من هذا الينبوع أى ربنـــا يسوع المسيح. لأن الرسول يقول "المسيح قوة الله وحكمة الله"[54]. أما هم فكانوا يقولون "لـــيس لنـــا ملك إلا قيصر"[55]. وقد لقى اليهود ما يستحقونه من عقاب بسبب إنكارهم، فقــد تلاشـــت مـــدينتهم وأفكارهم معها. أما هؤلاء الأريوسيون فإنهم يخاطرون بفقدان إتمام السر وأعنى بـــه المعموديـــة. لانه إن كان إتمام الس يعطى باسم الآب والابن وهم لا يقرون بأب حقيقى بسبب إنكارهم للذى هـــو منه، الذى هو مثله فى الجوهر، منكرين الابن الحقيقى ويسمون لأنفسهم ابناً آخر، إذ أنهم يـــصيغونه فى مخيلتهم على أنه مخلوق من العدم، ألا يكون طقس المعمودية الذى يتممونه فارغاً تماماً وعـــديم الجدوى، إذ أن له مظهر خارجى، أما فى الحقيقة فإنه ليس لـــه شـــئ يعـــين علـــى التقـــوى؟ لأن الأريوسيين لا يعمدون باسم الآب والابن، بل باسم خالق ومخلوق، وباسم صانع ومصنوع. ومثلمـــا يختلف المخلوق عن الابن، هكذا فإن تلك المعمودية التى يظنون أنهم يعطونها تختلف عن الحقيقـــة رغم أنهم يتظاهرون بأنهم يسمون اسم الآب والابن بسبب كلمات الكتاب. فليس من يقول ببساطة "يا رب" هو الذى يعطى المعمودية، بل هو ذلك الذى مع الاسم الذى يدعوه، عنده أيضاً إيمان مـــستقيم. لهذا السبب فإن المخلص لم يأمر فقط بالعماد، بل قال أولا "تلمذوا" ثم بعد ذلك قـــال "عمـــدوا باســـم الآب والابن والروح القدس"[56] لكى يأتى الإيمان المستقيم من التعليم، ومع الإيمـــان يـــأتى إتمـــام المعمودية.

---

[50] انظر يو 23:14.
[51] أنظر يو21:17 ، 22.
[52] رو 7:1، 1كو3:1، أف 2:1.
[53] أنظر باروخ 12:3.
[54] 1 كو 24:1.
[55] يو 15:19.
[56] مت 19:28.

43- وهناك هرطقات أخرى كثيرة تذكر الأسماء فقط، ولكن بدون إعتقاد مستقيم – كما سبق أن قيل – وبدون إيمان سليم. ولذلك فالمعمودية التى يعطونها عديمة الجدوى وتعوزها التقوى، حتى أن من يعمدونه يتلوث بإلحادهم بدلاً من أن يُفتدى. وهكذا الوثنيون أيضاً فرغم أنهم ينطقــون بأســم الله بشفاهم، إلا أنهم يرزحون تحت وزر الإلحاد لأنهم لا يعرفون الكائن بالفعل الله الحق أبـا ربنـا يسوع المسيح. والمانويون أيضاً والفريجيون واتباع الساموساطى، رغم أنهم يـستخدمون الأسـماء فهم ليسوا أقل هرطقة. وهكذا أيضاً كل الذين يعتقدون بتعاليم آريوس بــدورهم، فــإنهم وإن قــرأوا الكتب، أو ذكروا الأسماء إلا أنهم هم أنفسهم يسخرون من الذين ينالون المعمودية بواسطتهم. وهــم أكثر كفراً وإلحاداً من الهرطقات الأخرى ويفوقونهـا قلـيلاً قلـيلاً، ويعطونهـا تبريـراً بهــذرهم وثرثرتهم. لأن هذه الهرطقات تكذب على الحق، وذلك إما أنها تخطئ بخصوص جسد الرب زاعمة أن الرب لم يتخذ جسده من مريم، أو أنه لم يحدث له موت إطلاقاً، ولم يصر إنساناً قط، بل إنه ظهر كإنسان ولكنه لم يكن إنسانا حقيقة، وظهر كأن له جسداً بدون أن يكون له جسد. وأنه ظهر كإنـسان كما يبدو فى حلم. أما الأريوسيون فهم يكفرون بالآب ذاته لأنهم يجدفون على ألوهيته، رغــم أنهــم يسمعون الكتب تشهد لألوهيته فى الابن كما فى صورة، يقولون أن هذه الألوهيــة مخلوقــة. وهــذا القول "أنه لم يكن كائناً"، ينقلونه معهم فى كل مكان مثل وحل فى حقيبة، وينفثون هذا القــول مثلمــا تنفث الحية سمها. ومَنْ ثَم إذاً بما أن التعليم النابع منهم يثير الأشمئزاز والمقت، فــإنهم فــى الحــال يصنعون حماية بشرية كدعامة لجيفة هرطقتهم، حتى أن الساذج عندما يراها أو يقبلها وهو خــائف مرتعد فإنه لا يدرك الهلاك المميت لأقوالهم الفاحشة وضـــلالهم. فكيــف لا يكــون الــذين ضــلوا بواسطتهم مستحقين للشفقة والرثاء؟ وكيف لا يكون من الصواب ذرف الدمع السخين على هــؤلاء، لأنهم يخونون منفعتهم الذاتية فى سبيل خيال سريع للاستمتاع بملذات يفقدون بها رجــاءهم الآتــى؟ لأنهم لن يحصلوا على شئ ما دام إيمانهم فى معموديتهم على اسم غير الكائن. وإذ يربطون أنفــسهم بالمخلوق فلن ينالون من المخلوق أية معونة. وإذ يؤمنون بمن هو مختلف عن الآب وغريــب عــن جوهره، فإنهم لن يتحدوا مع الآب طالما ليس لهم الابن الذاتى النابع منه بالطبيعة، الــذى هــو فــى الآب، والآب موجود فيه كما قال هو نفسه[57]. ولكن حيث أن التعساء يُخدعوا من هؤلاء فقط ظلــوا هكذا مقفرين وعراة من اللاهوت. لأن خيال الأشياء الأرضية لن يتبعهم عنــدما يموتــون. لأنهــم عندما يرون الرب الذى أنكروه، وهو جالس على عرش أبيه، ويدين الأحياء والأموات، فلن يــتمكن

---

[57] **أنظر يو 10:14.**

أحد منهم أن يلتمس مساعدة أى واحد من أولئك الذين خدعوهم. لأنهم سيبصرون هــؤلاء أنفــسهم أيضاً وهم يدانون، فيندمون على ما أرتكبوه من إثم وتجديف!.

الفصل التاسع عشر

شرح نصوص: سادساً : أمثال 22:8
"الرب خلقنى أول طرقه لأجل أعماله"

44- لقد سبق أن عالجنا النص الذى جاء فى الأمثال داحضين خرافاتهم الملفقة الخارجة من قلوبهم، لكى يعرفوا أنه من غير اللائق أن يقولوا أن ابن الله مخلوق، وأن يتعلموا أيضاً أن يقرأوا جيداً النص الذى جاء فى سفر الأمثال والذى يحمل المعنى المستقيم. لأنه قد كُتب: "الرب خلقنى (قنانى) أول طرقه لأجل أعماله"[1]. وحيث أنها أمثال وكتبت على شكل مثل التعبير، فليس من الواجب تفسير أية عبارة بطريقة ارتجالية أو ببساطة هكذا، بل يجب أن نتقصى أولاً عن الشخص ثم ننسب المعنى إليه بورع وتقوى. لأن كل ما يقال بأمثال لا يقال بطريقة واضحة، بل يعلن بطريقة غامضة، مثلما علّم الرب نفسه فى الإنجيل بحسب يوحنا قائلاً: "قد كلمتكم بهذه الأشياء بأمثال، ولكن تأتى ساعة حين لا أكلمكم فيما بعد بأمثال... بل علانية"[2]. ولذلك ينبغى كشف معنى القول والتقصى عنه لكونه خفياً، وألا يفسر ببساطة كما لو كان قد قيل علانية، لكى لا نضل عن الحقيقة عندما نسئ الفهم.

إذن، فإن كان المكتوب يشير إلى ملاك أو أى كائن آخر من المخلوقات، كما لو قيل عن أى واحد منا نحن المصنوعون. فإنه يمكن أن يقال "خلقنى (قنانى) **EKTICE**"، ولكن إن كان الكلام عن حكمة الله الذى به قد خُلِقَت جميع المخلوقات، فما الذى يجب أن يفهمه الواحد منا سوى أنه عندما يقال "خلق" فإنه لا يقصد شئ آخر مضاد للفظ "وَلَـدَ" "EGENNECE". ولا يُحسب الحكمة بين المخلوقات كأننا ننسى أنه هو الخالق والمصّور أو ننكر الفرق بين الخالق والمخلوقات. ولكن الحكمة لها معنى آخر يبدو مخيفاً فى الأمثال، وليس ظاهراً علانية، وهى التى أوحت إلى القديسين أن ينطقوا بالوحى الإلهى. بينما هى تعطى فى الأمثال بعد قليل معنًى موازياً لـ "قنى" فنقول بألفاظ أخرى "أن الحكمة بنت لنفسها بيتاً"[3]. وواضح أن بيت الحكمة هو جسدنا الذى عندما إتخذه الكلم صار إنساناً. وقال عنه يوحنا بحق "الكلمة صار جسداً"[4]. وبواسطة سليمان تقول الحكمة عن ذاتها

---

(1) أم 22:8.
(2) انظر يو 25:16.
(3) أم 1:9.
(4) يو 14:1.

بإدراك وتبصر: ليس أننى أنا مخلوق، بل قالت: "الرب قنانى أول طرقه من أجل أعمالــه"، دون أن تقول: "إنه قنانى لكى أوجد، وليس لأن لى بداية وميلاد كمخلوق".

45- لأن الكلمة هنا لم يتحدث من خلال سليمان مشيراً إلى جوهر ألوهيته ولا إلــى مــيلاده الأزلى والحقيقى من الآب، ولكنه يشير إلى ناسوته وعمل تدبير خلاصنا. ولهذا –كما سبق أن قلت – فإنه لم يقل إلى "مخلوق" أو "صرت مخلوقاً"، بل قال فقط "قنى" (أو خلق) أى أن المخلوقات حيــث أنها ذات جوهر مخلوق، فإنها تنتمى إلى المخلوقات، ويقال عنها أنها تُخلقَ. وبديهى فإن المخلــوق يُخلق. ولكن اللفظة المذكورة "خَلَقَ" لا تعنى الجوهر أو الولادة إطلاقاً. بل توضح أن شيئاً آخر قــد حدث لذاك الذى يشير إليه، فليس كل ما يقال عنه أنه يُخلق يكون مخلوقاً بحسب الطبيعة والجوهر.

والكتاب الإلهى يعرف هذا الفرق عندما يتحدث عــن المخلوقــات قــائلاً "امــتلأت الأرض بخليقتك"[(5)] و "الخليقة تئن وتتوجع معاً"[(6)]. ويقول فى الرؤيا "ومات ثلث الخلائق الحية التــى فــى البحر التى لها نفوس"[(7)]. ويقول بولس أيضاً "كل خليقة الله جيدة، ولا يُرفض أى شئ عندما يؤخــذ مع الشكر"[(8)]. أما فى سفر الحكمة فقد كتب "بحكمتك صوّرت الانسان كى يسود على الخلائق التــى تكوَّنت بك"[(9)]. ولأن هذه خلائق فإنه يقول أنها تُخلق. وهكذا أيضاً يمكننا أن نسمع الرب وهو يقول: "منذ البدء صنعهما ذكراً وأنثى"[(10)]. أما موسى فقد كتب فى أنشودته "فاسأل عن الأيام التــى كانــت قبلك من اليوم الذى خلق الله فيه الانسان على الارض، ومن أقصاء السماء إلى أقصائها"[(11)]. ويقول بولس فى رسالته إلى أهل كولوسى "الذى هو صورة الله غير المنظور بكر كل خليقة، فإنه فيه خُلِــقَ الكل ما فى السموات وما على الارض، ما يُرى وما لا يُرى ســواء كــان عروشــاً أم ســيادات أم رئاسات أم سلاطين. كل الأشياء خُلِقَت به وله. الذى هو قبل جميع الأشياء"[(13)].

46- إذن فتلك الأشياء ذات الجوهر المخلوق بالطبيعة، تسمى مخلوقات وتُخلقَ. وما ذكرنــاه من آيات الكتاب يكفى لإثبات ذلك. وقد قيلت هنا للتذكير والتنبيه. ولكن الكتاب مملوء بأمثالها. أمــا

[(5)] مز 24:103 سبعينية.
[(6)] رو 22:8.
[(7)] رؤ 9:8.
[(8)] 1 تيمو 4:4.
[(9)] حكمة سليمان 2:9.
[(10)] مر 6:10.
[(11)] تث 32:4.
[(13)] كو 15:1-17.

عندما يُقال اللفظ "خَلَقَ" فهو لا يقال عن الجوهر إطلاقاً، ولا يعنى الولادة. فداود يترنم: "لِيُكتَب هــذا لجيل آخر وشعب عندما يُخلق سيسبح الرب"[13]. ويقول أيضاً: "قلباً نقياً اخلق فىّ يا الله"[14]. ويقول بولس فى رسالته إلى أهل أفسس: "مبطلاً ناموس الوصايا فى فرائض لكى خلق الاثنين فــى نفــسه إنسانا واحداً جديداً"[15]. وأيضاً "البسوا الانسان الجديد المخلــوق بحــسب الله فــى البــر وقداســة الحق"[16].

فإن داود لم يشر إلى أى شعب مخلوق بحسب الجوهر، ولا كان يتضرع لكى يحــصل علــى قلب آخر غير القلب الذى كان له. بل كان يقصد التجديد ونوال الحياة بحسب الله. وبولس أيضاً لــم يكن يقصد شخصين مختلفين مخلوقين فى الرب بحسب الجوهر. ولا كان يوصينا بأن نلبس أنــساناً آخر، لكنه دعا الحياة بحسب الفضيلة أنها "الانسان بحسب الله"، أما الاثنان المخلوقان فــى المــسيح فيقصد بهما شعبين مُجدّدين به. وهذا مشابه لما يقوله أرميا: "خلق الله خلاصــاً لأجــل زرع جديــد الذى به سيتجول الناس فى أمان"[17]. وعندما قال هذا لم يقصد أى جوهر خاص بمخلوق، بل هــو يتنبأ بالخلاص المتجدد بين البشر، ذلك الخلاص الذى صار بالمسيح لأجلنا. وحيث أن هناك فرقــاً بين المخلوقات وبين القول المذكور "خَلَقَ"[18]، فإن وجدتم الرب يُدعى مخلوقاً فى أى موضــع فــى الكتاب فأوضحوه وحاربوا. أما إن لم يكن قد كُتب فى أى موضع أنه مخلوق سوى ما قاله عن ذاتــه فى الأمثال "الرب خلقنى" فأخجلوا إذن من الفرق السابق ذكره.

ومن الآن فصاعداً لا تستمعوا إلى لفظ "خلقَ" على أن معناه أنه هو مخلوق، بل أفهمــوا بــه الطبيعة البشرية الخاصة بالرب، لأن لهذه الطبيعة خاصية مميزة لها وهى أنها مخلوقــه. وكيــف لا تكونون ظالمين ما دمتم عندما تسمعون لفظ "خَلَقَ" من داود ومن بــولس لا تفهمــون بــه الجــوهر والكيان، بل التجديد بينما عندما تسمعون لفظ "خَلَقَ" من الرب فإنكم تحسبون جــوهره فــى عــداد المخلوقات؟ وأيضاً عندما تسمعون القول: "الحكمة بنت لنفسها بيتاً وأقامت سبعة أعمدة"[19]. فــإنكم

---

[13] مز 18:102.
[14] مز 10:51.
[15] اف 15:2.
[16] اف 24:4.
[17] أر 22:38 سبعينية.
[18] باليونانية (إكتيسى)
[19] ام 1:9.

تفهمون "بيتاً" بمعنى مجازى. أما لفظ "خلق" فتقبلونه كما هو[20]، وتحوّلونه إلـــى معنـــى "مخلـــوق" فكونه هو نفسه خالقاً ليس كافياً لإقناعكم، وكذلك لم تخشوا كونه هو وحده مولوج الآب الذاتى، بـــل تحاربون بغير اكتراث كما لو كنتم تسجلون هذه الألفاظ ضده، وتعتبرونه أنه أقل بكثير من البشر.

47- لأن نفس العبارة توضح أيضاً إنه إختراع منكم أن تقولوا أن الرب مخلوق. لأن الـــرب حيث أنه يعرف جوهره وأنه هو الحكمة وحيد الجنس ومولود الآب وأنـــه مختلـــف عـــن الأشـــياء الصائرة والمخلوقة بالطبيعة، وأنه هو محب للبشر فهو يقول الآن: "الرب خلقنى أول طرقه" كما لـــو كان يقول "الآب هيأ لى جسداً"[21] وخلقنى للبشر من أجل خلاص الناس. لأنه كما أننا عندما نـــسمع من يوحنا: "الكلمة صار جسداً" فإننا لا نفهم من ذلك أن الكلمة كله جسد، بل أنه لبس جسداً صـــائراً إنساناً. وعندما نسمع "صار المسيح لعنة لأجلنا"[22]. وأيضاً "جعل الذى لم يعرف خطيئـــة، خطيئـــة لأجلنا"[23]. فإننا لا نفهم من كل هذا أنه هو نفسه قد صار لعنة وخطية، بل تحمل اللعنـــة الموجهـــة ضدنا كما قال الرسول "افتدانا من اللعنة"[24]. ومثلما قال أشعياء "حمل خطايانا"[25]، ومثلمـــا كتـــب بطرس "حمل خطايانا فى جسده على الصليب"[26]. لهذا فإذا سمعنا فى الأمثال لفظ "خلق" فلا يجـــب أن نفهم أن الكلمة مخلوق بحسب الطبيعة، بل إنه لبس الجسد المخلوق. وأن الله خلقه مـــن أجلنـــا و "هيأ له جسداً مخلوقاً من أجلنا" كما هو مكتوب[27]، لكى ما نستطيع أن نتجدد ونُؤله.

أيها الاغبياء ما الذى خدعكم إذن لكى تقولوا أن الخالق مخلوق؟ أو من أين اشتريتم لأنفـــسكم هذا الاعتقاد الجديد الذى تتفاخرون به؟ فالأمثال تقول "خلق" ولكنه لا تقول أن "الابن مخلـــوق" بـــل "مولود" ووفقاً لما سبق أن أتضح من تمييز الأسفار المقدسة بين "خلق" و "مخلوق". فهـــى تعتبـــر ان الابن بطبيعته الذاتية هو الحكمة الوحيدة الخالصة وأنه خالق المخلوقات. وحينمـــا تقـــول الأمثـــال "خلق" فإنها لا تشير إلى جوهره، بل تؤكد أنه صار أول كل طرقه. وهكذا يكون لفظ "خلق" متارضاً مع لفظ "مولود"، وما تقوله عنه الأمثال أنه "أول طرقه" يتعارض مع كونه الكلمة الوحيد الجنس.

---

[20] أى حرفياً وليس مجازياً.
[21] انظر عب 5:10.
[22] غل 13:3.
[23] 2كو 21:5.
[24] غل 13:3.
[25] انظر اش 4:53.
[26] انظر 1بط 24:2.
[27] انظر عب 5:10.

48- لأنه لو كان مولوداً فكيف تسمونه مخلوقاً؟ لأنه لا أحد يقول أنه يلد ما يخلقه. ولا أحد يسمى المولود الذاتى مخلوقاً. ومرة أخرى فإن كان هو وحيد الجنس فكيف يصير هو نفسه "اول الطرق"؟ لأنه من الضرورى أنه إن كان هو نفسه قد خُلِقَ أول كل طرقه فهو لا يكون بعد موجوداً وحده، بل يكون معه أولئك الذين خُلِقوا بعده. فرأوبين الذى كان أول الأبناء لم يكن الوحيد، بل الأول زمنياً، ولكنه بحسب الطبيعة والقرابة كان واحداً بين أولئك الذين ولدوا بعده. إذن فإن كان الكلمة هو "أول الطرق" فإنه سيكون مثلما تكون الطرق أيضاً، وتكون هذه الطرق مثلما يكون الكلمة أيضاً، حتى إن كان من جهة الزمن، يُخلق هو الأول بينها.

ولأن بداية المدينة هى مثل أجزاء المدينة الأخرى، فإن الأجزاء نفسها تكون مرتبطة ببداية المدينة تماماً، وتكون كلها مدينة واحدة مثل الأعضاء الكثيرة التى تكوّن جسداً واحداً. ولا يكون جزء من المدينة صانعاً وجزء آخر مصنوعاً – أى يكون خاضعاً للأول، بل كل المدينة تخضع لحكم ورعاية ذلك الذى قام بصنعها وصياغتها وتشكيلها أيضاً.

إذن فإن كان الرب أيضاً يُخلق هكذا أول جميع الأشياء، فمن الضرورى أن يكوَّن هو مع كل الأشياء الأخرى خليقة واحدة. ولا يختلف عن الأشياء الأخرى حتى إن كان هو أول جميع الأشياء. ولا يكون هو رب أجزاء الخليقة الأخرى حتى إن كان هو أقدم منها زمنياً. بل يكون له هو أيضاً كلمة خالق واحد ورب واحد كما لكل الأشياء الأخرى. وعلى وجه العموم فإن كان هو مخلوقاً فكيف يمكن أن يُخلق هو وحده بإعتباره الأول ليكون بداية الجميع؟ بينما يبدو مما سبق أن قيل أنه لا يوجد بين المخلوقات ما له طبيعة راسخة وثابتة وله الأولوية فى الوجود. بل كل منها يأخذ وجوده مع بقية المخلوقات حتى لو إختلف عن الأشياء الأخرى فى المجد. لأن أى نجم من النجوم ولا أى كوكب من الكواكب العظمى يظهر الواحد منها كالأول والآخر كالثانى، بل إنها دعيت جميعها إلى الوجود فى يوم واحد وبنفس الأمر[28]. وهكذا تشكّلت خلقة ذوات الأربع والطيور والأسماك والحيوانات والنباتات. وهكذا أيضاً قد خُلِق جنس البشر على صورة الله. لأنه وإن كان آدم وحده قد خِلِق من التراب، إلا أنه توجد فيه كل ذرية الجنس البشرى.

49- ومن خليقة العالم الظاهرة نعرف بوضوح أن "أموره غير المنظورة المدركة بواسطة المصنوعات"[29]، لا نرى كل واحد منها منفصلاً عن الآخر إذ لا يوجد بينها أول وآخر، بل إنها

[28] أى الأمر الذى خلقت به جميعها.
[29] أنظر رو 20:1.

خُلِقت كلها سوياً بحسب نوعها. لأن الرسول لم يحصِ كل واحد منها منفصلاً فيقول مثلاً: سواء كان ملاكاً أم عرشاً أم سيادة أم سلطاناً، بل إنه أشار إليها كلها معاً بحسب الدرجة بقوله "سواء ملائكة أو رؤساء ملائكة أو رئاسات"[30]. فإنه هكذا تكون خلقة المخلوقات. فكما سبق أن قلت أنه إن كان الكلمة مخلوقاً فلم يكن من اللازم أن يكون هو أولها بل يكون مع سائر القوات الأخرى، حتى وإن تفوق فى المجد عن الآخرين بدرجة أكبر. وهذا ما يمكن أن نجده فى القوات الأخرى لأنها وإن كانت قد خُلِقت كلها فى نفس الوقت ولا يوجد أول أو ثانٍ، إلا أنها تختلف بعضها عن بعض فى المجد، فيقف البعض عن اليمين والبعض حول العرش والبعض الآخر عن اليسار، والجميع يسبحون معاً ويقفون فى خدمة الرب.

إذن فإن كان الكلمة مخلوقاً لما كان هو أول الآخرين ولا بدايتهم، أما إن كان قبل الجميع كما هو الواقع فعلاً، وهو نفسه وحده أول وابن، فلا يترتب على ذلك أن يكون هو بداية الجميع بحسب الجوهر، لأن أول الجميع يُحسب فى عداد الجميع. وإن كان هو ليس بداية ولا خليقة، فإنه يكون واضحاً تماماً أنه ختلف عن المخلوقات فى الجوهر وأنه مغاير لها. وهو مثال وصورة الله الفريد الحق إذ هو نفسه أيضاً فريد. لذلك فالكتب لم تضعه بين المخلوقات، بل إن داود يوبخ أولئك الذين يتجاسرون أن يفكروا أنه واحد من مثل هؤلاء عندما قال: "من مثلك يا رب بين الآلهة"[31]، وأيضاً "من يشبه الرب بين أبناء الله"[32] أما باروخ فيقول "هذا هو إلهنا ولن يُقارَن به آخر"[33]. لأن الكلمة يَخلِق بينما المخلوقات تُخلق، وهو ذاته كلمة جوهر آب وحكمته. بينما المخلوقات التى لم تكن موجودة قبلاً قد صُنِعت بواسطة الكلمة نفسه.

50- أما تلك الثرثرة التى تدأبون على ترديدها بقولكم أن الابن مخلوق، فهذا أمر غير صحيح بل ه من نسج خيالكم وحده، وقد أدانه سليمان إذ أنه كثيراً ما كذبه، لأنه لم يذكر أن الابن مخلوق، بل هو مولود وهو حكمة الله بقوله "أسس الله الأرض بالحكمة"[34]. و"الحكمة بنت لها بيتاً"[35]. ومثل هذا القول عندما يُفحص فإنه يثبت مدى كفركم، لأنه مكتوب "الرب خلقنى أول طرقه من أجل أعماله". فإن كان هو موجوداً قبل الجميع فإنه يقول "خلقنى" ليس لكى أصنع الأعمال

(30) أنظر كو 16:1.
(31) أنظر مز 8:86.
(32) مز 6:89.
(33) باروخ 36:3.
(34) أم 19:3.
(35) أم 1:9.

بل "من أجل الأعمال"، وإن لم تكن عبارة "خلقنى" تشير إلى شئ لاحق لــه فــسيبدو هــو كلاحــق للأعمال حيث أنه عندما خُلِقَ وجد الأعمال التى قد صار من أجلها، قائمة قبله. فلو كان الأمر هكــذا فكيف يظل هو موجوداً قبل جميع الأشياء؟ وكيف أن "كل شئ به كان؟" وكيف تتحد فيه كل الأشــياء وتتماسك؟ وها أنتم تقولون أن الأعمال التى من أجلها خُلِقَ وأُرسل، اتحدث وتماسكت قبله.

ولكن حقيقة الأمر ليست هكذا – حاشا! إن فكر الهراطقة كاذب، لأن كلمة الله ليس مخلوقاً بــل خالقاً. وعندئذ فهو يتكلم بواسطة الأمثال فيقول "خلقنى" عندما لبس الجسد المخلوق، وهنــاك شــئ آخر يمكن استنتاجه من نفس اللفظ. لأنه بالرغم من كونه ابناً وله أب هو الله إذ أنــه هــو مولــوده الذاتى، إلا أنه هنا يدعو الآب رباً ليس لأنه كان عبداً، بل لأنه اتخذ شكل عبد. لأنه من ناحية كــان يلزم – لكونه الكلمة من الآب – أن يدعو الله أباً. فهذه هى خاصية الابن تجاه الآب، ومــن الناحيــة الأخرى عندما يأتى لينجز العمل آخذاً صورة عبد فهو يدعو الآب رباً. وقد علّــم هــو نفــسه هــذا الاختلاف بتمييز حسن عندما قال فى الأناجيل: "أحمــدك أيهــا الآب" وبعــد ذلــك "رب الــسماء والأرض"[36]. لأنه يقول أن الله هو أبوه ولكنه يدعوه رب المخلوقات مثلما يتضح من هذا بجلاء أنه عندما لبس الجسد المخلوق كان عندئذ يدعو الآب رباً. وكذلك فى صلاة داود أوضح الروح القــدس نفس الاختلاف عندما قال فى المزامير "إعطِ قوتك لعبدك وخلّــص ابــن أمتــك"[37]. لأن ابــن الله الحقيقى بالطبيعة هو شئ وأبناء الأمة الذين هم طبيعة المخلوقات شئ آخر. لــذلك فالواحــد كــابن تكون له قوة الآب. أما أبناء الأمة فهم فى حاجة إلى الخلاص.

51- فإن كان يهذون بسبب أنه سُمى ولداً، فليعرفوا أن اسحق دُعى ولداً لإبراهيم[38]، وابــن الشونمية سُمى ولداً[39]. وحيث أننا عبيد فمن الصواب إذن أنه عندما صار هو مثلنا، يدعو هو نفسه الآب رباً كما ندعوه نحن. وقد صنع هذا لمحبته للبشر، لكى نتشجع نحن الذين بحسب الطبيعة عبيد – نتشجع بقبولنا روح الابن – أن ندعو الآب أباً لا ننكر عبوديتنا له بحسب الطبيعة لأننا نحن عملــه "وهو صنعنا لا نحن"[40]، هكذا أيضاً عندما اتخذ الابن شكل عبد وقال "الرب خلقنــى أول طرقــه". فدعهم إذا لا ينكرون إزلية ألوهيته وأنه "فى البدء كان الكلمة"، و"كل شئ به كان"، و "به خلقت كــل الأشياء".

---

[36] مت 25:11.
[37] مز 16:86.
[38] تك 8:21.
[39] 2مل 18:4.
[40] انظر مز 3:100.

الفصل العشرون

شرح نصوص: سادساً : أمثال 22:8

"الرب قناني أول طرقه لأجل أعماله (تابع)"

أما العبارة الواردة فى الأمثل – كما سبقت أن قلت فهى لا تشير إلى جوهر الكلمة، بــل إلــى ناسوت الكلمة. لأنه إن كان يقول أنه قد خُلق "لأجل الأعمال" فإنه لا يريد أن يشير إلى جوهره، بــل إلى التدبير الذى صار لأجل أعماله، وهو الأمر الذى يكون تالياً لوجوده. لأن تلك الأشياء الــصائرة والمخلوقة قد صُنِعت أولاً وأساساً من أجل أن تكون وأن تُوجد، وثانياً أن يكون لهــذه الأشــياء أن تعمل بما يأمرها به الكلمة مثلما يمكن أن يُرى مثل هذا الأمر فى جميع الأشياء.

لأن آدم خُلق لا لكى يعمل بل لكى يوجد أولاً كإنسان، لأنه بعد ذلك تلقى أمراً أن يعمل. ونوح خُلِق ليس من أجل الفلك، بل ليوجد أولاً ويصير أنساناً، لأنه بعد ذلك تلقى أمراً أن يــصنع الفلــك. ومن يبحث ويفتش فإنه سيجد نفس الشئ مع كل واحد من المخلوقات. لأن موسى العظيم أيــضاً قــد كان إنساناً أولاً وبعد ذلك عُهِدَ إليه بقيادة الشعب. وهكذا هنا أيضاً من الممن أن نفهــم نفــس الــشئ لأنك ترى أن الكلمة لم يُخلق لكى يكون له وجود، بل "فى البدء كان الكلمة"، ولكنه بعد ذلــك أُرسِــل "لأجل الأعمال" وتدبير خلاصها. لأنه من قبل أن توجد "الأعمال" كان الابن موجوداً دائماً ولم تكــن هناك أية حاجة لكى يُخلق، وعندما خُلِقت "الأعمال" وصارت الحاجة ماسة بعد ذلــك إلــى تــدبير إصلاحها، عندئذ قدم الكلمة ذاته لكى ينزل ويصير مشابهاً "للأعمال". وهذا ما يوضح لنا معنى لفــظ "خلق"[1]. ولأنه يريد أن يثبت التشابه فإنه يقول مرة أخرى بإشعياء النبى: "والآن هكذا يقول الــرب الذى جبلنى من الرحم لأكون له عبداً. لأرجع إليه يعقوب واســرائيل. وســأتجمع وأتمجــد أمــام الرب"[2].

52- فأنت ترى هنا أنه لا يُجبل لكى يوجد، بل من أجل تجميع الأسباط التى كانت موجــودة قبل أن يُجبَل. فكما أن هناك كلمة "خلق"[3]، هكذا هنا كلمة "جبل"[4]. ومثلما هناك عبارة مــن "أجــل الأعمال"، هكذا هنا عبارة من "أجل التجميع" حتى تبدو كلمتا "خلق" و "جبل" أنهما تأتيان بعد وجــود الكلمة. وكما أن الاسباط التى من أجلها جُبل كانت موجودة قبل أن يُجبَل، هكذا يتضح أنه قد وُجدت "الأعمال" التى من أجلها "خُلق" أيضاً. وعندما "كان الكلمة فى البدء" لم تكن "الأعمال" موجودة بعــد كما سبق أن أشرت، وعندما صارت "الأعمال" وأصبحت الحاجة ملّحة، عندئذ قيلت لقظة "خلــق". وكما أن أى ابن فُقدت أملاكه وسطا عليها الأعداء بسبب إهمالها، فإن اقتضت الحاجة فربما يرســله

---

(1) أصلها اليونانى أكنيسى EKTICE.
(2) اش 5:49 سبعينية.
(3) باليونانية اكنيسى.
(4) باليونانية إبلاسى.

أبوه لاستردادها وتجميعها. وعندما يتوجه لهذا الغرض فإنه قد يرتدى رداء مشابهاً لردائهم، ويتشكل بشكلهم كى لا يتعرف عليه المستولون عليها أنه السيد فيهربوا، وبهذا يتعذر عليه أن ينزل ويكتشف الكنوز التى خبئوها تحت الأرض. وعندئذ إذا سأله أحد، لماذا أنت هكذا، فإنه قد يجيب قائلاً: "جبلنى أبى هكذا وأعدنى لأجل أعماله". وكأنه بهذا القول لا يعنى أنه عبد ولا أنه واحد من أعماله. ولا يتحدث عن بدء ميلاده، بل عن المهمة الموكلة إليه فيما بعد "من أجل الأعمال". وبنفس الطريقة أيضاً فإن الرب قد لبس جسدنا، "وُجد فى الهيئة كإنسان"[5]. فلو أنه سئل من الذين رأوه وتعجبوا لكان يقول لهم: "الرب خلقنى أول طرقه لأجل أعماله" و "جبلنى لكى أجمع أسرائيل" وهذا ما يقوله الروح فى المزامير "أقمته على أعمال يديك"[6]. وهذا الأمر هو ما يشير به الرب عن ذاته قائلاً "أنا أقمت ملكاً بواسطته على صهيون جبله المقدس"[7]. وكما أنه حينما "أشرق جسدياً"[8] على صهيون لم يكن هذا له بداية وجود أو مُلك، بل لكونه كلمة الله ومَلِكاً أبدياً، فإنه حُسِبَ مستحقاً من الناحية البشرية أن تشرق مملكته فى صهيون أيضاً، لكى بعد أن يفديهم ويفدينا من الخطية المتملكة عليهم، يجعلهم تحت مملكته الأبوية. وهكذا إذ قد أقيم من أجل الأعمال، فإن هذا ليس من أجل الأشياء التى لم تكن موجودة بعد، بل من أجل الأشياء التى كانت موجودة عندئذ وكانت فى حاجة إلى إصلاح.

53- إذن فإن الكلمات "خلق" و "جبل" و "أقام" لها نفس المعنى ولا تعنى بدء وجوده ولا أن جوهره مخلوق، بل تعنى التجديد الذى صار لأجلنا كعمل خيرً منه. وبينما كان يقول هذه الكلمات، فإنه كان يعلّم فى نفس الوقت أنه هو نفسه كان موجوداً قبل هذه الأشياء وذلك عندما قال: "قبل أن يكون ابراهيم أنا كائن"[9]. وايضاً "عندما هيأ السموات كنت أنا موجوداً هناك معه"[10]. و"كنت عنده أقوم بترتيبها"[11]. وكما كان هو كائنا قبل ابراهيم وجاء اسرائيل بعد ابراهيم، فيتضح أنه رغم أنه كان موجوداً من قبل فإنه جُبل بعد ذلك. والجَبْل[12] لا يعنى بداية وجوده، بل يشير إلى تأنسه الذى

---

[5] فى 8:5.
[6] مز 6:8.
[7] مز 6:2.
[8] "أشرق جسدياً" هو نفس التعبير فى ثيؤطوكية الاثنين (المعرب).
[9] يو 58:8.
[10] أم 27:9.
[11] أم 30:8.
[12] الجبل معناها الصياغة أو التشكيل.

فيه يجمع أسباط اسرائيل. وهكذا إذن حيث أنه موجود دائماً مع الآب، فإنــه هــو خــالق الخليقــة. وواضح أن أعماله وُجدت بعده. وأن لفظ "خَلَق" لا يعنى بداية وجوده بل يعلن التدبير الذى تــم فــى الجسد "من أجل الأعمال". لأنه كان من اللازم أن يكون هو مختلفاً عن الأعمال، بل بالحرى يكــون هو خالقها. وأن يتكفل هو نفسه بتجديدها، لكى إذ قد خُلِقَ لأجلنا فإن جميع الأشياء تخلــق بــه مــن جديد.

لأنه عندما قال "خَلَقَ" أضيف السبب فى الحال وذكر لفظ "الأعمال"، وذلك لكى يتــضح أنــه خُلِقَ "من أجل الأعمال"، وأن صيرورته إنساناً هى من أجل تجديد هذه الأعمال". وهذا أمر مــألوف فى الكتب الإلهية. لأنه عندما يشير إلى ميلاد الكلمة بحسب الجسد يذكر السبب الذى من أجلــه قــد صار إنساناً. وحينما يتحدث هو وخدامه بخصوص ألوهيته فإن كل شئ يقال بألفاظ بــسيطة وفكــر صافٍ، ولا يقال أبداً بطريقة معقدة. وذلك لأنه هو بهاء الآب، وهو مثل الآب لم يوجد عن طريــق أية علة، ولذلك لا يجب أن نبحث عن سبب هذا البهاء، لأنه مكتوب "فى البدء كان الكلمــة والكلمــة كان عند الله وكان الكلمة الله"[13]. ولم يكن هناك تساؤل بكلمة "لماذا" وعندما كُتِــبَ "الكلمــة صــار جسداً" حينئذ ذكر السبب الذى من أجله قد صار "وحل فينا"[14] وعندما يقول الرسول أيضاً: "الذى إذ كان فى صورة الله" فإنه لم يذكر السبب إلا عندما أخذ صورة عبد. لأنه حينئذ أشار كنتيجــة لــذلك قائلاً: "وضع نفسه حتى الموت موت الصليب[15]. ولهذا فقد صار جسداً متخذاً صورة عبد.

54- وكثيراً ما تحدث الرب نفسه بأمثال، ولكن عندما كان يشير إلى نفسه كان يقول بطريقة مطلقة: "أنا فى الآب والآب فىّ"[16]، و"أنا والآب واحد"[17]، و "من رآنى فقــد رأى الآب"[18] و"أنــا هو نور العالم"[19] و "أنا هو الحق"[20]، دون أن يذكر السبب فى كل قول ولا التساؤل "لماذا"، لكــى لا يبدو تالياً لتلك الأشياء التى من أجلها قد صار أيضاً.

---

(13) يو 1:1.
(14) يو 14:1 نص الآية فى الأصل اليونانى حرفيا هو خيم أو سكن.
(15) فى 6:2، 8.
(16) يو 10:14.
(17) يو 30:10
(18) يو 9:14.
(19) يو 12:8.
(20) يو 6:14.

لأنه من الضرورى أن يكون السبب سابقاً لمجيئه، والذى بدونه فإنه حتى هو نفسه لا يكـون ممكناً أن يصير. فمثلاً بولس "الرسول المقرر للإنجيل الذى سبق فوعد به بأنبيائه"[21]، كان الإنجيل الذى صار خادماً له، سابقاً عليه. ويوحنا الذى ان قد عُيَّن لكى يعد الطريق فقد كـان الـرب سـابقاً عليه. أما الرب فلأنه لم يكن له سبب قبله لكى يكون كلمة سوى أنه هو مولود الآب وحكمته الوحيد، فإنه عندما صار إنساناً، عندئذ فقط ذُكِرَ السبب الذى كان مزمعاً من أجله أن يلبس الجسد. لأن حاجة البشر تسبق صيرورته إنساناً، هذه الحاجة التى بدونها ما كان ليرتدى الجـسد. إن الحاجـة التـى بسببها قد صار الرب نفسه إنساناً هو ما يشير إليه هو نفسه عندما قال: "قد نزلت من الـسماء لـيس لكى أعمل مشيئتى، بل مشيئة الذى أرسلنى. وهذه هى مشيئة الذى أرسلنى أن كل مـا أعطـانى لا أتلف منه شيئاً. بل أقيمه فى اليوم الأخير. هذه هى مشيئة أبى أن كل من يرى الابن ويؤمن به تكون له حياة أبدية وأنا أقيمه فى اليوم الأخير"[22]. وكما يقول أيضاً أنا قد جئت نوراً إلى العالم حتـى أن كل من يؤمن بى لا يمكث فى الظلمة"[23]. ويقول أيضاً: "لهذا قد وُلدت أنا ولهذا قد جئت إلى العـالم لكى أشهد للحق"[24]. وقد كتب يوحنا: "لهذا أظهر ابن الله لكى ينقض أعمال إبليس"[25].

55- إذن فقد جاء المخلص إلى العالم من أجل الشهادة، ولكى يقاسى الموت من أجلنا، ويقـيم البشر، وينقض أعمال ابليس، وكان هذا هو سبب حضوره بالجسد. لأنه بغير هذا ما كان للقيامـة أن تتحقق لو لم يكن هناك موت. وكيف يكون هناك موت إن لم يكن له جسد؟ والرسول نفسه تعلَّم هـذا من الرب عندما قال: "فإذ قد تشارك الأولاد فى اللحم والدم اشترك هو أيضاً كذلك فيهما، لكى يبيـد بالموت ذلك الذى له سلطان الموت أى ابليس، ولكى يعتق أولئك الذين خوفاً من الموت كانوا جميعـاً كل حياتهم تحت العبودية"[26]. وأيضاً "فإنه إذ جاء الموت بواسطة انـسان، بإنـسان أيـضاً قيامـة الأموات"[27]، وأيضا "لأنه ما كان الناموس عاجزاً عنه إذ كان ضعيفاً بالجسد، فإن الله إذ أرسل ابنه فى شبه جسد الخطية ولأجل الخطية دان الخطية فى الجسد. لكى يتم حكـم النـاموس فينـا نحـن

---

(21) أنظر رو 2،1:1.
(22) يو 38:6-40.
(23) يو 46:12.
(24) يو 37:18.
(25) 1يو 8:3.
(26) عب 15،14:2.
(27) 1 كو 21:15.

السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح[28]. ويقول يوحنا: "لأن الله لم يرسل ابنه إلـــى العـــالم لكى يدين العالم بل ليخلص به العالم"[29]. والمخلص أيضاً قد تكلم عن نفسه قائلاً: "لدينونة أنـــا قـــد جئت إلى هذا العالم لكى يبصر الذين لا يبصرون والذين يبصرون يصيرون عمياناً"[30].

إذن فالمخلص لم يأتِ لأجل ذاته بل لأجل خلاصنا ولكى يبطل الموت ولكى يـــدين الخطيـــة، ولكى يعيد أبصار العميان، ولكى يقيم الجميع من بين الأموات. فإن كان قد أتى ليس لأجل ذاته بـــل لأجلنا فهو إذن لم يُخلق"[31] لأجل نفسه بل لأجلنا. وإن كان لم يُخلق لأجل نفسه بل لأجلنا فلا يكونم إذن هو نفسه مخلوقاً بل هو يقول هذا حيث أنه قد ارتدى جسدنا. وهذه الفكرة هى ما تعنيـــه الكتـــب المقدسة. وهذا هو ما نتعلمه من الرسول لأنه يقول فى رسالته إلى أهـــل أفـــسس: "ونقـــض حـــائط السياج المتوسط أى العداوة مبطلاً بجسده ناموس الوصايا فى فرائض. لكى يخلق الاثنين فى نفـــسه انساناً واحداً جديداً، صانعاً سلاماً"[32]. فلو أنا الاثنين خُلِقا فى نفسه ووُجداً فى جسده، فمن الطبيعـــى إن كان يلبس الاثنين فى نفسه، فإنه يكون كما لو كان هو نفسه الـــذى يُخلَـــق. لأن الـــذين يخلقهـــم يتحدون به ويكون هو فيهم مثلما يكونون هم فيه. هكذا إذن فما دام قد خُلِقَ الاثنان فيه فيكـــون مـــن الملائم تماماً أن يقول "الرب خلَقنى". فلأنه يأخذ على عاتقه ضعفاتنا يقال عنه أنه يضعُف رغم أنـــه هو لا يضعف لأنه هو قوة الله وقد صار خطية ولعنة من أجلنا، بالرغم من أنه غير خاطئ، ولكنـــه يقال هذا لأنه حمل خطايانا ولعنتنا. وهكذا إذ قد خُلِقنا فيه فيقال أيضاً "خلقنى من أجل الأعمال" رغم أنه هو غير مخلوق.

56- وبحسب فكر أولئك يعتبر جوهر الكلمة مخلوقاً بسبب قوله "الرب خلقنـــى"، وبالتـــالى لكونه مخلوق فهو لم يُخلَق من أجلنا، وإن لم يكن قد خُلِقَ من أجلنا فنحن لم نُخلَق به، وإن لم نخلـــق به فلن يكون هو لنا فى داخلنا، بل سيكون من خارجنا كما لو كنا نقبل منه التعليم مثلمـــا نقبلـــه مـــن معلم. ولو كان الأمر هكذا معنا لما فقدت الخطية سلطانها على الجسد، بل لظلت ملتصقة به وليـــست بعيدة عنه. غير أن الرسول يعارض تعليم هؤلاء بإعلانه لأهل أفسس قبل ما سبق أن اقتبسنا بقليـــل قائلاً: "لأننا نحن عمله مخلوقين فى المسيح يسوع". فإن كنا قد خُلقنا فى المسيح فلا يكون هو الـــذى

[28] رو 4،3:8.
[29] يو 17:3.
[30] يو 39:9.
[31] أى لم يُخلق بالجسد.
[32] أف15،14:2.

خُلِقَ، بل نحن الذين خُلِقنا بواسطته. لذا فإن القول "خلق" هو من أجلنا نحن وبسبب احتياجنـــا. فـــإن الكلمة رغم أنه خالق، احتمل أيضاً لقب المخلوقين. ولم يكن هذا لقبه الخاص. إذ أنه هـــو الكلمـــة، ولكن اللقب "خَلَقَ" هو خاص بنا نحن المخلوقين بواسطته.

وأيضاً كما أن الآب موجود دائماً فإن كلمته موجود دائماً أيضاً، ولأنه موجود دائماً فهو يقول "وكنت أنا موضع بهجته، فَرِحاً فى حضرته كل يوم"[33] وأيضاً "أنا فى الآب والآب فىّ"[34]. هكـــذا فإنه حينما صار انساناً تابعاً لجنسنا البشرى مثلنا، قال "الرب خلقنى" لكى يستطيع أن يطرد الخطيـــة بعيداً عن الجسد بسكناه فيه ولكى نحصل نحن على فكر حر"[35].

إذن فماذا كان يناسبه أن يقول عندما صار إنساناً. أيقول "فى البدء كنت انساناً؟" ولكـــن هـــذا ليس لائقاً به وليس حقيقياً. وكما أنه لم يكن من الواجب أن يقول هذا القول، فمن المناسب ومما يميز صفات الانسانية أن يقول "خلقه" و "صنعه". ولهذا يضاف أيضاً سبب قوله: "خَلَـــقَ" وهـــو حاجـــة "الأعمال". وحيث أنه يذكر السبب فإن هذا السبب بلا شك يعطى المعنى الـــصحيح تمامـــاً للفقـــرة المكتوبة، وخاصة وأنه هنا فى لفظ "خلقَ" يذكر السبب أى "الأعمال". بينما أنه عندما يشير بـــصورة مطلقة إلى الميلاد من الآب فإنه يضيف فى الحال: "قبل كل الجبال ولدنى"[36]. فهو لم يقل لماذا وُلِـــد مثلما حدث فى عبارة "خلقنى" حيث ذكر "من أجل الأعمال". بل إنه يقول بصورة مطلقة "ولـــدنى"، كما جاء فى القول : "فى البدء كان الكلمة". لأنه حتى وإن لم تكن الأعمال قد خُلِقت، إلا أن كلمـــة الله كان موجوداً، "وكان الكلمة الله". أما صيرورته انساناً فما كانت لتحدث لو لم تكن حاجة البشر هـــى السبب. فتبعاً لذلك لا يكون الابن مخلوقاً، لأنه لو كان مخلوقاً لما قال "ولدنى". لأن المخلوقات هـــى أعمال الصانع من خارجه، أما المولود فليس من خارجه وليس عملاً، بل هو مولـــود جـــوهر الآب الذاتى. لذا فبينما "الأعمال" هى مخلوقات، إلا أن كلمة الله هو ابن وحيد الجنس.

الفصل الحادى والعشرون

شرح نصوص: سادساً : أمثال 22:8 "أول طرقه لأجل أعماله (تابع)"

---

[33] أم 30:8.
[34] يو 10:14.
[35] خر من الخطية.
[36] أم 25:8.

57- إن موسى عندما تكلم عن الخليقة لم يقل "فى البدء ولد" ولا "فى البدء كان" بل قال: "فى البدء خلق الله السماء والأرض"[1] وداود لم يترنم بالقول يــداك ولــدتانى، بــل "يــداك صــنعتانى وأنشأتانى"[2]. فهو يقول فى كل مكان "صنع" عن المخلوقات. فى حين يتكلم عن الابن عكس ذلــك. فهو لم يقل عن الابن "صَنَعتُ"، بل "وَلَدتُ"[3]. و "وَلَدَنى" و "فاض قلبى بكلام صالح"[4]. فبينما يقول عن الخليقة فى البدء خلق" يقول عن الابن "فى البدء كان الكلمة". وهذا الاخــتلاف راجــع إلــى أن المخلوقات قد صُنعت ولها بداية وجود فى مرحلة زمنية محددة. ولذا فإن ما قيل عنهــا "فــى البــدء خلق" مساوٍ للقول "منذ البدء خلق" - كما أن الرب إذ قد عرف ما صنع علّم الفريسيين موبخاً إيــاهم قائلاً "إن الذى خلقهما منذ البدء خلقهما ذكراً وأنثى"[5]. لأن المخلوقات أتت إلى الوجود وخلقت مــن بداية ما، قبل أن يكون هناك أى وجود. وهذا هو ما قصده الروح القدس أيضاً بقوله فــى المزاميــر "وأنت يا رب منذ البدء أسست الأرض"[6]. ويقول أيضاً "أذكر جماعتك التى اقتنيتها منذ القــدم"[7]. وواضح أن الذى يكون منذ البدء له بداية خلق، وأن الله اقتنى الجماعة فى وقت معين. فــإن القــصد من القول "خلقَ" فى عبارة "فى البدء خَلَقَ"، أنه بدأ يخلق. وموسى نفسه أوضح هذا بعد تمام عمــل كل الأشياء قائلاً: "وبارك الله اليوم السابع وقدسه لأنه فى هذا اليوم استراح من أعماله التى بــدأ الله أن يخلقها"[8]. إذن فإن المخلوقات قد بدأت أن تُخلق، أما كلمة الله فحيث أنه ليس له بداية وجود فإنــه لم يبدأ أن يوجد ولا بدأ أن يصير، بل كان موجوداً دائماً. والأعمال لها بداية لصنعها، وبايتها تــسبق صيرورتها فى الوجود أما الكلمة فإنه ليس من بين الأشياء التى تصير، بل بالأحرى هو خالق هــذه الأشياء التى لها بداية. ووجود المخلوقات يرجع إلى صيرورتها. ومن بداية ما، يبدأ الله يصنع هــذه الأشياء بواسطة الكلمة، لكى يكون معروفاً أن هذه الأشياء ليس لها وجود قبل أن تصير. أما الكلمــة فإن وجوده ليس له بداية أخرى سوى فى الآب الذى هو بلا بداية كما يعترنون هم، فــالابن أيــضاً موجود بلا بداية فى الآب، إذ أنه فى الواقع هو مولوده وليس مخلوقه.

---

[1] تك 1:1.
[2] مز 73:119.
[3] مز 7:2و 3:101.
[4] مز 2:45.
[5] مت 4:19.
[6] مز 25:102.
[7] مز 2:74.
[8] تك 3: سبعينية.

58- هكذا فإن الكتاب الإلهى يفرق بين "المولود" وبين "المصنوعات"، ويوضح أن المولـــود هو ابن ليس مبتدئاً من أية بداية، بل هو أزلى. أما الشئ المصنوع فلأنه من عمل الذى صـــنعه مـــن الخارج، فهذا يشير إلى أن له بداية خلق. ويوحنا عندما كان يعلّم عن ألوهية الابـــن وهـــو يعـــرف الفرق بين اللفظين لم يقل "فى البدء قد صار" أو "فى البدء قد صُنع"، بل قال "فى البدء كان الكلمـــة"، فكلمة "كان" تتضمن "المولود" لكى لا يظن أحد أن هناك فرقاً زمنياً، بل ليؤمنـــوا أن الابـــن أزلـــى وموجود دائماً.

ومع كل هذه البراهين، فكيف لم تستوعبوا أيها الآريوسيون الأقوال التى جـــاءت فـــى ســـفر التثنية وتتجاسرون أن تكفروا بالرب مرة أخرى بقولكم أنه "مصنوع" أو "مخلوق" بينما هو "مولود"؟ وأنتم تزعمون أن "المولود" و"المصنوع" لهما نفس المعنى. ومن هنا – مع ذلك – سيتضح أنكم غيـــر عارفين كما أنكم عديمى التقوى. لأن القول الأول هو هذا: "اليس هذا هـــو أبـــوك الـــذى أوجـــدك وصنعك وخلقك"[8]. ويقول بعد قليل فى نفس الأنشودة: "تركت الله الذى ولـــدك ونـــست الله الـــذى أطعمك"[9]. وهذه الفكرة غريبة للغاية، فهو لم يقل أولاً ولدَ لئلا يبدو القـــول غيـــر مختلـــف عـــن "صنع"، ولوجد هؤلاء مبرراً أن يقولوا أن موسى منذ البدء ذكر أن الله قد قال "لنصنع انـــساناً"[10]، وبعد ذلك قال "تركت الله الذى ولدك" كما لو أن الألفاظ غير مختلفة. أى أن "المولود" و "المـــصنوع" هما نفس الشئ. ولكن بعد أن ذكر لفظى "أوجد" و "صنع" أضاف أخيراً لفظ "ولد" لكـــى يظهـــر أن العبارة تحمل تفسيرها فيها. لأن اللفظ "صنع" يشير فى الحقيقة إلى طبيعة البشر. أى أنهـــم أعمـــال ومصنوعات. أما لفظ "ولد" فيوضح مبة الله للبشر التى صارت للناس بعد أن خلقهـــم. ولأن النـــاس أظهروا جحوداً لمحبة الله للبشر هذه، لهذا وبخهم موسة وقال أولاً: "هـــل تكـــافئون الـــرب بهـــذه الأمور؟" ثم أضاف "أليس هذا هو أبوك الذى أوجدك وصنعك وخلقك"[11]. وقال ثانياً: "قدموا الذبائح للشياطين وليس لله لآلهة لم يعرفوها، ودخلت آلهة جديدة وحديثة ولم يعرفها آباؤهم، تركت الله الذى ولدك"[12].

---

(8) تث 6:32.
(9) تك 18:32.
(10) تك 26:1.
(11) تك 6:32.
(12) تك 17:32، 18.

59- فإن الله لم يخلقهم بشراً فقط بل دعاهم أيضاً أبناء لأنه ولدهم. لأن لفظ "ولد" لـــه معنـــى هام. لأنه يشير إلى أبن كما قال بواسطة النبى "ولدت بنيناً ونشأتهم"[13]. وعموماً فإن الكتاب عنـــدما يريد أن يشير إلى "ابن" يعبر عنه ليس بواسطة لفظ "خُلقتُ"، بل حتمـــاً بواســـطة اللفـــظ "وُلـــدتُ". ويتضح هذا من قول يوحنا "أعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله أى المؤمنون بأسمه، الذين ولـــدوا ليس من دم، ولا من مشيئة جسد، ولا من مشيئة رجل، بل من الله"[14]. وهذا النص واضـــح لأنـــه حين يذكر عبارة "أن يصيروا" يقول إن هؤلاء أبناء ليس بحسب الطبيعة بل بحسب التبنى. ثم يقـــول "وُلِدوا" لأن هؤلاء قد حصلوا على لقب ابن بالكامل ولكن الشعب كما يقول النبى تمرد علـــى الـــذى فعل معه "الخير"[15]. فهذه هى محبة الله للبشر أنه بالنسبة لأولئك الذين صنعهم فقد صار لهـــم أبـــاً أيضاً بعد ذلك بحسب النعمة. وقد صار لهم أباً أيضاً بعد ذلك بحسب النعمة، وقد صار لهم أباً – كما قال الرسول – عندما حصل الناس المخلوقون على "روح ابنه فـــى قلـــوبهم صـــارخاً: أبانـــا أيهـــا الآب"[16]. فهؤلاء هم الذين قبلوا "الكلمة" ونالوا منه سلطاناً أن يصيروا أولاد الله. لأنه لم يكـــن فـــى إمكانهم – حيث أنهم مخلوقات بالطبيعة – أن يصيروا أبناء بأية طريقة أخرى إلا بـــأن يتقبلـــوا روح الابن الحق بالطبيعة. لذا فلكى يحدث هذا فقد "صار الكلمة جسداً" لكى يجعل الانسان قـــادراً علـــى تقبل الألوهية، ويمكن أن نتعلم هذه الفكرة أيضاً من ملاخى النبى الذى قال "ألم يخلقكم إلـــه واحـــد؟ أليس لكم أب واحد"[17]. وهنا أيضاً وضع أولاً "خلق" وثانياً لفظ "أب" لكى يثبت هو أيضاً أننـــا كنـــا منذ البدء مخلوقات بحسب الطبيعة وأن الله هو خالقنا بواسطة الكلمة وبعد ذلك جعلنا أبنـــاء، وهكـــذا صار الله الخالق هو أبونا أيضاً.

إذن فإن "الآب" هو خاص "بالابن"[18] وليس بالخليقة، كما أن "الابن" خاص بالآب. ويـــضتح من هذا أننا لسنا أبناء بالطبيعة. أما الذى جاء وسطنا فهو ابن بالطبيعة. وأيضاً فإن الله لـــيس أبانـــا بالطبيعة، بل هو أب الكلمة الموجود فينا والذى به نصرخ: "أبانا أيها الآب". وبنفس الطريقـــة فإنـــه يدعو أولئك الذين يرى ابنه فيهم، أبناءً له ويقول: "وَلدتُ"، حيث أن الولادة تدل على الابن حقاً، أما "الصنع" فهو لفظ يدل على "الأعمال". لهذا فإننا نحن لم "نُولد أولاً" بل "صُنعنا" كمـــا هـــو مكتـــوب

(13) اش 2:1.
(14) يو 13،12:1.
(15) انظر اش 3:1.
(16) غل 6:4.
(17) مل 10:2 سبعينية.
(18) أى أن الآب هو أب للابن وليس للخليقة.

"لنصنع انساناً"، وبعد ذلك بواسطة قبولنا نعمة الروح قال: إننا "نُولَد". لهذا فإن موسى العظـيم قـال بمعنى جيد فى أنشودته، أولاً: "أوجد" وبعد ذلك "وَلد"، لئلا عند سماع لفظ "وَلد" ينسون طبيعتهم مـن البداية، وبهذا يعرفون أنهم من البدء مخلوقات. وعندما يقال أن الناس يولدون كأبناء بالنعمـة فـإنهم مع ذلك هم أيضاً مصنوعات بالطبيعة.

60- إن "المخلوق" ليس فى الواقع هو "المولود"، بل هما يختلفان أحدهما عـن الآخـر فـى الطبيعة وفى معنى الألفاظ نفسها. والرب نفسه أوضح هذا فى الأمثال. لأنه عنـدما قـال: "الـرب خلقنى أول طرقه"[19]، أضاف: "لكنه قبل كل الجبال ولدنى"[20]. فإن كان الكلمة مخلوقـاً بالطبيعـة وبالجوهر، والمولد يختلف عن المخلوق فما كان له أن يضيف "ولدنى" بل لكان قد اكتفى بلفظ "خلق" ما دام هذا اللفظ يعنى أيضاً "ولد". ولكنه هنا يقول "خلقنى أول طرقه لأجل أعماله". وأضاف عبـارة "ولدنى" ليس عن غير قصد، بل بعد ربطها بأداة الربط "لكن"، وبذلك يعطى حماية كافية للفظ "خلق" قائلاً "لكنه قبل كل الجبال ولدنى"، لأن عبارة "ولدنى" إذ تأتى مع لفظ خلق فإنها تضفى عليها معنًـى معيناً. وهو يوضح أن لفظ "خلق" إنما قيل لأجل غرض معين. أما عبارة "ولدنى" فهى تتخذ وضـعاً قبل "خَلَقَ". لأنه لو كان قد قيل بالعكس تماماً: "الرب ولدنى" ثم أردف بالقول "ولكن قبل كل الجبـال خلقنى"، لكان لفظ "خلق" يعتبر سابقاً على لفظ "ولد". وهكذا بقوله أولاً "خلق". وبقوله "ولـدنى قبـل الكل" يشير إى أن ذاته هى شئ آخر غير الكل. وقد أتضحت الحقيقة فيما سبق من أقوال، أنه فيمـا يتعلق بالمخلوقات لم يصر أى واحد منها قبل غيره، بل إن جميع المخلوقات خُلقت معاً فـى نفـس الوقت وبنفس الأمر الواحد. ولهذا فإن لفظ "ولدنى" لا يرتبط به ألفاظ مثل التى ترتبد بلفـظ "خلـق"، ولكن لفظ خلق يرتبط به "أول طرقه"، أما لفظ ولدنى فلم يقل معه "فى البدء ولدنى"، بل "قبـل الكـل ولدنى"، فهذا هو الذى قبل الكل لا يكون أول الكل، بل هو شئ آخر غير الكل. فإن كان مختلفاً عـن كل الأشياء، التى من بينها يعتبر هو أول الجميع، فيتضح من ذلك أنه مختلـف عـن المخلوقـات، ويظهر بوضوح أنه بما أن الكلمة مختلف عن الكل وموجود قبل الكل، فإنه بعـد ذلـك يُخْلَـقَ "أول طرقه من أجل أعماله" بسبب التجسد. كما قال الرسول "الذى هو البداية، البكر من الأمـوات لكـى يكون هو متقدماً فى كل شئ"[21].

:[1*]Kommentar

---

[19] أم 22:8.
[20] أم 25:8.
[21] كو 18:1.

61- وإن كان يوجد مثل هذا الفرق بين "خَلَقَ" و "ولدنى"، وبين "أول الطرق" و "قبل الكـــل"، فإن الله أولاً هو خالق البشر وقد صار فيما بعد أباً لهم بسبب كلمته الساكن فيهم. والعكـــس بالنـــسبة للكلمة، إذ أن الله هو أبوه بالطبيعة، لكنه صار فيما بعد خالقه وصانعه عندما لبس الكلمة الجسد الذى خُلِقَ وصُنِعَ، وصار انساناً. لأنه كما أن البشر الذين حصلوا على روح الابن صـــاروا بـــه أولاداً، هكذا كلمة الله عندما لبس هو أيضاً جسد البشر، فيقال حينئذ أنه خُلق وصُنع. إذن فلو كنا نحن أبنـــاء بالطبيعة يكون هو أيضاً مخلوقاً ومصنوعاً بالطبيعة. ولكن إن كنا نحن أبناء بالتبنى وبالنعمـــة فمـــن الواضح أن الكلمة حينما صار انساناً بسبب النعمة من نحونا، قال: "الرب خلقنى". وبعد ذلك حينمـــا لبس ما هو مخلوق فإنه صار مشابهاً لنا بحسب الجسد، ولهذا فمن الصواب أن يدعى أيضاً "أخانا" و "بكرنا". ورغم أنه صار إنساناً بعدنا ومن أجلنا وهو أخونا بسبب مشابهة الجسد، إلا أنه بهذا يـــدعى أيضاً "بكرنا". لأنه بما أن كل البشر قد هلكوا بسبب مخالفة آدم، فإن جسده كـــان هـــو أول مـــا تـــم تخليصه وتحريره إذ أن هذا الجسد هو جسد الكلمة نفسه. وهكذا إذ قد صرنا متحـــدين بجـــسده قـــد خلصنا على مثال جسده. وبهذا الجسد صار الرب هو قائدنا إلى ملكوت السموات وإلى أبيـــه نفـــسه لأنه يقول "أنا هو الطريق"[22]، "وأنا هو الباب"[23]، ويجب على الجميع "أن يدخلوا بى". مـــن أجـــل ذلك يدعى أيضاً "بكر من بين الأموات" لا لأنه مات أولنا – إذ أننا قد متنا قبله – بل لأنه قد أخذ على عاتقه أن يموت لأجلنا – وقد أبطل هذا الموت، فإنه هو الأول الذى قام كإنسان، إذ قد أقام جسده مـــن أجلنا. وتبعاً لذلك حيث أن ذلك الجسد قد أقيم، هكذا نحن أيضاً نقوم من بين الأموات منه وبه.

62- وإن سُمى أيضاً "بكر الخليقة"[24]، لكنه لم يلقب بكراً كمساوٍ للمخلوقات، أو أولهم زمنياً (لأنه كيف يكون هذا وهو نفسه الوحيد الجنس بحق؟). لأنه بسبب تنازل الكلمة إلى المخلوقات فإنـــه قد صار أخاً لكثيرين. وهو يعتبر "وحيد الجنس" قطعاً إذ أنه وحيد وليس له إخوة آخـــرون والبكـــر يسمى بكراً بسبب وجود إخوة آخرين. لذلك فلم يُذكر فى أى موضـــع فـــى الكتـــب "بكـــر الله" ولا "مخلوق الله"، بل ذُكر "الوحيد الجنس"، و"الابن" و"الكلمة" و"الحكمة". وهـــذه تـــشير إلـــى علاقتـــه الخاصة المتميزة بالآب. وهكذا كُتب "رأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب"[25] و "أرســـل الله ابنـــه

[22] يو 14:6.
[23] يو 10:7.
[24] كو 1:15.
[25] يو 1:14.

الوحيد"[26] و "كلمتك يا رب ثابت إلى الأبد"[27] و "فى البدء كان الكلمة وكان الكلمة عنـد الله"[28] و "المسيح قوة الله وحكمة الله"[29] و "هذا هو ابنى الحبيب"[30] و "أنت هو المسيح ابن الله الحى"[31].

أما لفظ "البكر" فيشير إلى التنازل إلى الخليقة، لأنه بسببها سُمى بكرا. ولفظ "خَلَق" يشير إلـى النعمة "من أجل الأعمال"، فإنه يُخلق من أجلها فإن كان هو "الابن الوحيد" تمامـاً مثلمـا هـو فـى الحقيقة، فإن كلمة بكر تحتاج إلى تفسير، لأنه لو كان "بكراً" لما كان "وحيداً" لأنـه غيـر ممكـن أن يكون هو نفسه "وحيداً" و "بكراً" إلا إذا كان يشير إلى أمرين مختلفين. فهو "الابـن الوحيـد" بـسبب الولادة من الآب، ولكنه يسمى "بكراً" لسبب التنازل للخليقة ومؤاخاته للكثيرين. فإن كـان اللفظـان متعارضين أحدهما مع الآخر، فإنه سيكون فى إمكان أى شخص أن يقـول أن اصـطلاح "الوحيـد الجنس" متعلق "بالكلمة" وذلك بسبب عدم وجود "كلمة" آخر أو "حكمة" آخر، بل إنه هو وحـده ابـن الآب الحقيقى. لأنه كما قيل سابقاً فإن اصطلاح "وحيد الجنس" لم يُذكر مرتبطاً بأى سبب، بل ذُكـر بصورة مطلقة أنه: "الابن الوحيد الذى هو فى حضن الآب"[32]. أما اصطلاح "البكر" فهـو مـرتبط بالخليقة التى أشار إليها بولس عندما قال: "لأنه فيه خُلق الكل"[33]. فإن كانت كـل المخلوقـات قـد خلقت بواسطته فإنه يكون مختلفاً عن المخلوقات، ولا يكون مخلوقاً بل هو خالق المخلوقات.

63- إذن فهو لم يُدعَ "بكراً" بسبب كونه من الآب، بل بسبب أن الخليقة قد صارت به. وكمـا كان الابن نفسه موجوداً قبل الخليقة وهو الذى به قد صارت الخليقة، هكذا أيضاً فإنه قبل أن يُـسمى "بكر كل الخليقة" كان هو الكلمة ذاته عند الله. ولكن حيث أن الكافرين لـم يفهمـوا هـذا صـاروا يجولون قائلين: "إن كان هو بكر كل خليقة فمن الواضح أنه هو نفسه أيضاً واحد من الخليقة". يا لهم من حمقى! فإن كان هو بكر كل الخليقة جمعاء فهو إذن مغاير لكل الخليقة، لأنه لم يقل أنه كان بكـر بقية الخلائق لكى لا يظن أنه مثل واحد من الخلائق، بل قد كُتب "بكر كل خليقة" كـى يتـضح أنـه مختلف عن الخليقة. فرأوبين مثلاً لم يُدعَ بكر جميع أولاد يعقوب، بل بكر يعقوب وبكر إخوته، لكى

---

(26) 1يو 4:9.
(27) مز 89:119.
(28) يو 1:1.
(29) 1كو 24:1.
(30) مت 17:3.
(31) مت 16:6.
(32) يو 18:1.
(33) كو 16:1.

لا يظن أنه شخص آخر ولا ينتمى إلى أولاد يعقوب[34]. أما بخصوص الرب نفسه فلم يقل الرسول: "لكى يصير بكر الجميع"، لكى لا يُظن أنه يلبس جسداً مختلفاً عن جسدنا، بل قال: "إنه بكر بين إخوة كثيرين"[35] وذلك بسبب مشابهة الجسد. فلو كان الكلمة واحداً من بين الخلائق، لكان الكتاب قد قـــال عنه أنه بكر المخلوقات الأخرى. أما الآن حيث يقول القديسون أنه "بكر كل الخليقـــة" فإنـــه يتـــضح العكس تماماً لأنه غير كل الخليقة، وأن ابن الله ليس بمخلوق. لأنه إن كان مخلوقاً فسيكون هو بكـــراً بالنسبة لنفسه.

فكيف يكون ممكناً أيها الآريوسيون أن يكون هو الأول لذاته والثانى بالنـــسبة لنفـــسه؟ وبعـــد ذلك، فإن كان هو مخلوقاً، وكل الخليقة قد صارت به وتتكون فيه، فكيف يستطيع أيـــضاً أن يخلـــق الخليقة وأن يكون هو فى نفس الوقت واحداً من أولئك الذين خُلِقوا فيه؟ فبدعتهم هذه تظهـــر منـــافي للعقل وسقيمة، فهم يحيدون عن الحق، لأنه قد دُعى "بكراً بين إخوة كثيرين" بسبب علاقـــة الجـــسد. وسُمى "البكر من بين الأموات" لأن قيامة الموتى قد صارت منه ومن بعده. وقد دعـــى "بكـــر كـــل الخليقة" من أجل محبة الآب للبشر التى بسببها، ليس أن الكل فقط قد تكون بكلمته، بـــل إن الخليقـــة نفسها – التى تحدث عنها الرسول أنها "تنتظر ظهور أبناء الله"[36]، هى أيضاً سوف "تعتق يوماً مـــن عبودية الفساد إلى حرية مجد أولاد الله"[37]. وهكذا فبعد أن تتحرر الخليقة فسيكون الرب أيضاً هـــو بكرها وبكر كل الأولاد المولودين، لكى بتسميته "الأول" فإن الذين يتبعونه يظلـــون مـــرتبطين بـــه كبداية لهم.

64- وأعتقد أن الكافرين أنفسهم سيخجلون من مثل هذه الفكرة، لأنه لو أن الأمر لـــم يكـــن هكذا مثلما قلنا، بل هم يريدونه أن يكون – بحسب الجوهر – مخلوقاً بين الخلائق. وبهـــذا المعنـــى يفهمون "بكر كل الخليقة"، فدعهم إذن يعترفون أنهم – فى هذه الحالة – سيفهمونه أنـــه أخ ومـــشابه للكائنات غير الناطقة والتى بلا نفس. لأن هذه الأشياء هى أيضاً أجزاء من كل الخليقة، ولذلك يكون البكر بالضرورة هو الأول من الناحية الزمنية فقط، أما من ناحية النوع والتشابه فيكون هو والجميع شئ واحد. فكيف إذن لا يفوقون كل كفر عندما يقولون هذا؟ ومن سيحتملهم عندما يتكلمون هكـــذا؟ وكيف يستطيع أحد ألا يشمئز منهم بسبب أنهم يتفكرون فى مثل هذه الأمور؟

---

[34] أنظر تك 23:35.
[35] رو 29:8.
[36] رو 19:8.
[37] أنظر رو 21:8.

لأن واضح للجميع أنه دُعى "بكر الخليقة" ليس بسبب نفسه كما لو كان مخلوقاً، ولا بسبب أن له علاقة ما من جهة الجوهر مع كل الخليقة، بل لأن الكلمة – منذ البدء – عندما خلق المخلوقات، تنازل إلى مستوانا حتى يتيسر لها أن تأتى إلى الوجود. لأن المخلوقات ما كان ممكناً لها أن تحتمل طبيعته – التى هى بها الآب الخالص – لو لم يتنازل بحب الآب للبشر ويعضدها ويمسك بها ويحضرها إلى الوجود. ونكرر أيضاً أنه بنزول الكلمة، قد صار تبنى الخليقة نفسها به، لكى يصير هو بكرها فى كل شئ كما سبق أن قيل، سواء فى الخلق أم فى دخوله إلى العالم نفسه من أجل الكل لأنه مكتوب "ومتى أدخل البكر إلى العالم، يقول ولتسجد له كل ملائكة الله"[38]. فليسمع أعداء المسيح وليمزقوا أنفسهم بشدة. لأن إدخاله إلى العالم ساهم فى تسميته "بكر" الكل، حتى يكون هو ابن الآب الوحيد الجنس بسبب أنه هو الوحيد الذى من الآب، كما أنه "بكر" الخليقة من أجل تبنى الجميع. ولأنه هو بكر بين الإخوة، وقد قام من بين الأموات ليكون هو باكورة الراقدين[39]، لذلك كان من الواجب أن يكون متقدماً فى كل شئ، لهذا فقد "خُلِقَ أول الطرق". لكى إذ نتبعه وندخل بواسطته هو القائل "أنا هو الطريق" و"الباب" ونشترك فى معرفة الآب، فإننا نسمع الكلمات: "طوباهم الذين بلا عيب فى الطريق"[40] وايضاً "طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله"[41].

65- وهكذا إذ قد ظهر الحق وإتضح أن الكلمة ليس مخلوقاً بالطبيعة، فمن المناسب الآن أن نوضح كيف قيل عنه "أول الطرق". لأنه حيث أن الطريق الأول الذى كان من خلال آدم، قد ضاع وانحرفنا إلى الموت بدل الفردوس وسمعنا القول: "إنك تراب وإلى التراب تعود"[42]، لذا فإن كلمة الله المحب للبشر ليس الجسد المخلوق بمشيئة الآب لكى يحيى بدم نفسه هذا الجسد الذى أماته الانسان الأول بسبب تعديه، كما قال الرسول: "وكرس لنا طريقا حياً حديثاً بالحجاب أى جسده"[43]. وهو ما أشار إليه فى موضع آخر حينما قال: "إن كان أحد فى المسيح فهو خليقة جديدة. الأشياء العتيقة قد مضت هوذا الكل قد صار جديداً"[44]. فإن كان كل شئ قد صار خليقة جديدة فإنه من الضرورى أن يكون هناك شخص هو أول هذه الخليقة. ولا يمكن أن يكون هو الانسان الضعيف

(38) عب 6:1.
(39) انظر 1كو 20:15.
(40) مز 1:119.
(41) مت 8:5.
(42) تك 19:3.
(43) عب 20:10.
(44) 2 كو 17:5.

الترابى، وهى حالتنا نحن بسبب التعدى. لأنه فى الخليقة الأولى قد صار البشر عديمى الايمان وهلكت الخليقة الأولى بسببهم، ولذا صارت هناك حاجة إلى آخر وهو الذى يقوم بتجديد الخليقة الأولى والذى يحفظ الخليقة الجديدة التى ستصير. لذلك فمن محبته للبشر لم يخلق أى شخص غير الرب ليكون أول طريق الخليقة الجديدة. ومن الصواب أن يقول: "الرب خلقنى أول طرقه لأجل أعماله" لكى لا يحيا الانسان فيما بعد بحسب الخليقة الأولى. وإذ توجد بداية خليقة جديدة والمسيح هو بدء طرقها، إذن فلنقتف أثره هو القائل لنا "أنا هو الطريق". وأيضاً يعلّم الرسول المغبوط فى رسالته إلى أهل كولوسى قائلاً: "هو رأس الجسد الكنيسة، الذى هو البداية، البكر من بين الأموات لكى يكون متقدماً فى كل شئ"[45].

66- لأنه إن كان المسيح – كما قيل – يعتبر بداية بسبب القيامة من الأموات، إذ قد حدثت قيامة عندما لبس جسدنا وبعد أن سلّم ذاته للموت من أجلنا، فإنه يكون واضحاً أن ما قاله هو: "خلقنى أول طرقه" يشير ليس إلى جوهره بل إلى وجوده الجسدى. لأن الموت خاص بالجسد. وكما أن الموت صفة خاصة للجسد، هكذا أيضاً فإن الوجود الجسدى يكون خاصاً بالقول "الرب خلقنى أول طرقه". لأنه هكذا خُلق المخلص بحسب الجسد وصار أول الذين خُلقوا من جديد واتخذ باكورتنا التى هى الجسد البشرى الذى لبسه، وبعده يأتى الشعب الآتى الذى خُلق كما قال داود "يُكتب هذا لجيل آخر، وشعب سيُخلق يسبح الرب"[46]. ويقول فى المزمور الحادى والعشرين: "الجبل الآتى سيُخبَّر عن الرب. وسيعُلنون بره للشعب الذى سيُولد الذى صنعه الرب"[47]. لأننا لن نسمع بعد: "لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت"[48]، بل نسمع: "حيثما أكون أنا تكونون أنتم أيضاً"[49]. وهكذا نستطيع أن نقول: "لأننا نحن عمله مخلوقين لأعمال صالحة"[50]. ومرة أخرى حيث أن عمل الله – أى الانسان – الذى خُلِق كاملاً، قد صار ناقصاً بسبب المخالفة، وصار ميتاً بالخطيئة، فلم يكن لائقاً أن يظل عمل الله ناقصاً. ولأجل هذا توسل جميع القديسين قائلين فى المزمور 137 "يا رب جازهم بسببى.. يا رب لا تتخل عن أعمال يديك"[51]. لأجل ذلك فإن كلمة الله الكامل قد لبس الجسد

---

[45] كو 18:1.
[46] مز 18:102.
[47] أنظر 30:22،31 (رمز 21 بالسبعينية).
[48] تك 17:2.
[49] يو 3:14.
[50] أنظر أف 10:2.
[51] مز 8:138 (مز 137 بالسبعينية).

الناقص. ولهذا يُقال أنه "خُلق من أجل الأعمال"، لكى بعد أن يوفى الدين بدلاً منا يكمّل بنفسه ما هـو ناقص عند الانسان. فالانسان ينقصه الخلود والطريق إلى الفـردوس. وهـذا يتـضح ممـا قالـه المخلص: "انا مجدتك على الأرض، العمل الذى أعطيتنى لأعمل قد أكملته"[52] وأيـضاً "الأعمـال التى أعطانى الآب إياها لأكملها. هذه الأعمال بعينها التى أنا أعملها هى تشهد لى"[53]. إن الأعمـال التى يتحدث عنها هنا أن الآب قد أعطاها له ليكملها، هى تلك التى خُلق من أجلها كمـا يقـول فـى الأمثال "الرب خلقنى أول طرقه لأجل أعماله". وهذا كأنه يقول "الآب أعطانى الأعمـال" و"الـرب خلقنى لأجل الأعمال".

67- إذن يا محاربى الله، متى أخذ الأعمال لكى يكملها؟ فمن هذا أيضاً سيتضح معنى اللفـظ "خلق". فإن قلتم أن هذا قد حدث فى البدء عندما صنع الأشياء من العدم، يكون هـذا كـذباً وغيـر حقيقى، ذلك لأن الأعمال لم تكن قد وجدت بعد. وواضح أنه يقول أنه أخذ "أعمالاً" كانت موجـودة عندئذ. وليس من التقوى أن نقول أن هذا حدث قبل الزمن الذى صار فيه الكلمة جسداً، لكى لا يبـدو أن مجيئه إلى العالم كان عديم النفع، لأن مجيئه كان من أجل هذ "الاعمال". إذن عينا أن نداوم القول انه عندما صار إنساناً، فإنه عندئذ فقط أخذ "الأعمال". لأنه عندئذ أكملها أيضاً شافياً جراحنا ومانحـاً إيانا القيامة من الأموات. لأنه إن كانت "الأعمال" قد أعطيت عندئذ للكلمة أى عندما صـار جـسداً، فإنه يكون واضحاً أنه عندما صار إنساناً فإنه حينئذ أيضاً "خُلِقَ لأجل الأعمال". إذن فلفظ "خَلَـقَ" لا يشير إلى جوهره –كما قلنا مراراً– بل إلى تكوينه الجـسدى. ولأن الأعمـال صـارت ناقـصة ومشوهة بسبب التعدى، لذا يقال عنه أنه "خُلِقَ" من جهة الجسد، لكى بعد أن يكمـل هـذه الأعمـال ويتمم صنعها يحضر الكنيسة إلى الآب كما قال الرسول "لا دنس فيها ولا غضن أو شئ مـن مثـل ذلك، بل تكون مقدسة وبلا عيب"[54].

إذن فقد كمل فيه الجنس البشرى وأعيد تأسيسه كما كان فى البدء، بل بالأحرى بنعمة أعظـم من الأول. لأننا بعد القيامة من بين الأموات لن نخاف الموت بعد، بل سنملك فـى الـسموات مـع المسيح على الدوام. وهذا لأن نفس كلمة الله الذاتى الذى من الآب، قد لبس الجسد وصـار إنـساناً، لأنه لو كان مخلوقاً ثم صار إنساناً فإن الإنسان يبقى كما كان دون أن يتحد بالله. لأنه كيـف يمكـن لمخلوق أن يتحد بالخالق بواسطة مخلوق؟ لأن أية معونة يمكن أن يحصل عليهـا متمـاثلون مـن

[52] يو 4:17.
[53] يو 36:5.
[54] أف 27:5.

مماثليهم ما داموا هم أيضاً محتاجين إلى نفس المعونة؟ وإن كان الكلمة مخلوقاً فكيف يمكنه أن يبطل حكم الله ويصفح عن الخطيئة وهو أمر كتب عنه الأنبياء أنه خاص بالله؟ لأن "من هو إله مثلك غافر للإثم ومتغاضٍ عن الخطايا"[55]. فإن الله قال "إنك تراب وإلى التراب تعود"[56]، والبشر قد صاروا مائتين. إذن فكيف يكون فى إمكان المخلوقين أن يبطلوا الخطية؟ فإن الرب نفسه هو الذى أبطلها كما قال هو نفسه: "إن لم يحرركم الابن"[57]، وأوضح حقاً أن الابن الذى حرر ليس مخلوقاً وليس من بين المخلوقات، بل هو الكلمة الذاتى وصورة جوهر الآب، وهو الذى "أصدر الحكم"[58]، فى البداية، وهو الذى صفح عن الخطايا. وإذ قيل بواسطة الكلمة "أنت تراب وإلى التراب تعود" هكذا أيضاً قد تحققت الحرية بالكلمة نفسه وفيه، وبه قد صار إبطال الدينونة.

68- ولكنهم يقولون أنه كان فىاستطاعة الله أن يقول كلمة واحدة يبطل بها اللعنة حتى لو كان المخلص مخلوقاً. ومن المحتمل أن يسمعوا نفس الشئ من آخر يقول: "كان فىالإمكان ألا يأتى الابن إلى العالم على الإطلاق، وأن يتكلم الله فقط ويبطل اللعنة". ولكن يلزم التفكير فى تحديد ما هو ملائم للبشر وليس فى ما يكون فى استطاعة الله. لأنه كان قادراً أن يهلك البشر المخالفين قبل فلك نوح، ولكنه فعل هذا بعد الفلك. وكان يستطيع بدون موسى أن يخرج الشعب من مصر بكلمة فقط، ولكن كان من المفيد أن يفعل هذا بواسطة موسى. وكان الله يستطيع أيضاً أن يخلص الشعب بغير القضاة ولكن كان من مصلحة الناس أن يقيم لهم قاضياً فى كل عصر. وكان من الممكن أن يقيم المخلص بيننا منذ البداية، أو بعد أن جاء كان يمكنه ألا يستسلم لبيلاطس. لكنه جاء عند إنقضاء الدهر. فعندما سألوه قال "أنا هو"[59]. لأن ما صنعه كان هو بعينه النافع للبشر. ولم يكن من المناسب أن يكون هناك شئ آخر. وبرعايته قد صنع أيضاً ما هو نافع ولازم.

إذن فهو قد "جاء لا لكى يُخدَم"، بل لكى يَخدم وأن يصنع لنا خلاصاً"[60]. وبالتأكيد كان يستطيع أن يُملى الشريعة من السماء غير أنه رأى أنه لصالح البشر أن يمليها من سيناء. وهذا ما قد صنعه بالفعل حتى يستطيع موسى أن يرتقى الجبل ويتمكن أولئك الذين يسمعون الكلام عن قرب أن يؤمنوا أكثر.

---

(55) ميخا 18:7.
(56) تك 19:3.
(57) انظر يو 36:8.
(58) يقصد أن الكلمة هو الذى أصدر حكم الموت "لأنك تراب وإلى التراب تعود".
(59) يو 5:18.
(60) مت 28:20.

ويمكن أيضاً أن ندرك صواب ما قد فعله من الآتى:

لو أن الله قال كلمة واحد – لسبب قدرته – وأبطل بها اللعنة، لظهرت قوة الذى أعطى الأمر ولكن الانسان كان سيظل كما كان آدم قبل العصيان، لأنه كان سيحصل على النعمة من الخارج دون أن تكون متحدة مع الجسد (فهذه كانت الحالة عندما وُضِع فى الجنة) بل ربما صارت حالته الآن أسوأ مما كان فى الجنة بسبب أنه قد تعلَّم كيف يعصى. فلو كانت حالته هكذا وأُغوِىَ مرة أخرى بواسطة الحية لصارت هناك حاجة مرة أخرى أن الله يأمر ويبطل اللعنة وهكذا تستمر الحاجة إلى مالا نهاية، ولظل البشر تحت الذنب بسبب استعبادهم للخطية – إذ هم يقترفون الإثم، ولظلوا على الدوام فى حاجة لمن يعفو عنهم ولما خلصوا قط. ولكونهم أجساداً بحسب طبيعتهم فإنهم يظلون مقهورين دائماً بواسطة الناموس لسبب ضعف الجسد.

69- ومرة أخرى، لو كان الابن مخلوقاً لظل الانسان مائتاً كما كان قبلاً، حيث أنه لم يتحد بالله. فإنه لا يستطيع مخلوق أن يوّحد المخلوقات مع الله، إذ أنه هو نفسه فى حاجة لمن يوَّحده بالله. وليس فى وسع جزء من الخليقة أن يكون خلاصاً للخليقة إذ هو نفسه فى حاجة إلى الخلاص. ولكى لا يحدث هذا أرسل الله ابنه وصار ابن الانسان بإتخاذه الجسد المخلوق. وحيث أن الجميع كانوا خاضعين للموت، وكان هو مختلفاً عن الجميع فقد قدم جسده الخاص للموت من أجل الجميع. إذن حيث أن الجميع ماتوا بواسطته هكذا قد تم الحكم (إذ أن الجميع ماتوا فى المسيح). وهكذا فإن الجميع يصيرون بواسطته أحراراً من الخطية ومن اللعنة الناتجة عنها، ويبقى الجميع على الدوام قائمين من الأموات ولابسين عدم موت وعدم فساد. وكما قلنا مراراً وتكراراً فإن الكلمة بلبسه للجسد بدأ يبطل منه كلية كل لدغة من لدغات الحية، ويقطع منه أى شئ ينبع من حركات الجسد، ويبطل معها أيضاً الموت الذى يتبع الخطية كما قال الرب نفسه: "رئيس هذا العالم يأتى وليس له فىَّ شئ"[61]. وحيث أن أعمال إبليس[62] قد نُقِضت من الجسد فقد تحررنا جميعاً بسبب علاقتنا بجسده، وصرنا متحدين مع الكلمة "ولأننا متحدون مع الله فلن نمكث كثيراً بعد على الأرض، بل كما قال هو نفسه: "حيث يكون هو هناك نكون نحن أيضاً"[63]. وعندئذ لن نخاف الحية بعد لأنها أُبطلت بواسطة الجسد بعد أن طردها المخلص عندما سمعتْ "اذهب عنى يا شيطان"[64]. و"هكذا طُرد خارج

---

[61] يو 30:14.
[62] 1يو 8:3.
[63] انظر يو 13:14.
[64] مت 10:4.

الفردوس وأُلقى فى النار الأبدية. ولن تحترس بعد من المرأة التى خدعتنا لأنه فى "القيامة لا يُزوجون ولا يَتَزَوجون بل يكونون كالملائكة[65]. وستكون خليقة جديدة فى المسيح يسوع "حيث ليس ذكر وأنثى"[66]. بل سيكون المسيح الكل فى الكل[67]، وحيث يكون المسيح فأى خوف أو خطر يكون هناك؟

70- ولكن كل هذا لم يكن ممكناً أن يحدث لو أن الكلمة كان مخلوقاً فالشيطان إذ هو مخلوق فإنه يواصل الحرب دئماً ضد المخلوق، وحيث أن الانسان موجود فى وسط هذا الصراع فهو خاضع للموت، إذ ليس له من بواسطته وعن طريقه يتحد بالله لكى يتحرر من كل خوف. ولذلك فإن الحق يوضح أن الكلمة لا ينتمى إلى المخلوقات، بل بالحرى هو نفسه خالقهم. ولذلك فقد لبس الجسد البشرى المخلوق، لكى بعد أن يجدده كخالق فإنه يُؤلِّهه فى نفسه، وهكذا يدخلنا جميعاً إلى ملكوت السموات على مثال صورته. لأنه ما كان للإنسان أن يتأله لو أنه اتحد بمخلوق أو لو أن الابن لم يكن إلهاً حقيقياً. وما كان للإنسان أن يقف فى حضرة الآب لو لم يكن الذى لبس الجسد هو بالطبيعة كلمته الحقيقى.

وكما أنه لو لم يكن الجسد الذى لبسه الكلمة جسداً بشرياً لما كنا قد تحررنا من الخطيئة واللعنة (حيث أنه فى هذه الحالة لا يكون هناك شئ مشترك بيننا وبين ما هو غريب)، هكذا لم يكن للانسان أن يُؤلَه لو لم يكن الكلمة الذى صار جسداً هو ابن طبيعى حقيقى وذاتى من الآب. لهذا إذن صار الاتحاد هكذا: أن يتحد ما هو بشرى بالطبيعة بهذا الذى له طبيعة الألوهية، ويصير خلاص الانسان وتأليهه مؤكداً. ولذلك فإن الذين ينكرون أن الابن هو بالطبيعة من الآب وأنه مولوده الذاتى من جوهره، فلينكروا أيضاً أنه قد حصل على جسده البشرى الحقيقى من مريم الدائمة البتولية. لأنه لن يكون لنا نحن البشر أى ربح بعد، إن لم يكن الكلمة هو ابن الله الحقيقى بالطبيعة، وإن لم يكن الجسد الذى إتخذه هو جسد حقيقى. ولكنه بالتأكيد قد إتخذ جسداً حقيقياً برغم ما يهذى به فالنتينوس[68]، ذلك لأن الكلمة هو إله حق بالطبيعة رغم هذيان مجانين الآريوسية. فهو بهذا الجسد قد صار بدء خليقتنا الجديدة لأنه قد خُلِقَ كإنسان لأجلنا وقد كرس لنا ذلك الطريق كما قد كُتب.

---

[65] مت 30:22.
[66] أنظر 28:3.
[67] انظر 1 كو 28:15.
[68] انظر المقالة الأولى ضد الآريوسيين صفحة 104 هامش 75.

71- إذن فالكلمة ليس مخلوقاً، لأن ألفاظ "المخلوق" و"المصنوع" و"العمل" تعنى نفس الـشئ. فلو كان "مخلوقاً" لكان أيضاً "مصنوعاً" و"عملاً" لهذا فإنه لم يقل "خلقنى عملاً"، و"صنعنى مع الأعمال" لكى لا يظن من الناحية الأخرى حسب نية الكافرين أنه صار أداة من أجلنا. وأيضاً لم يعلن: "خلقنى قبل الأعمال"، لئلا وهو موجود قبل الكل "كمولود"، وهكذا قيل أيضاً أنه "مخلوق قبل الأعمال"، فإن اللفظ "مولود" واللفظ "خلق" يظهران كأن لهما نفس المعنى. ولكنه قال بتمييز دقيق "من أجل الأعمال" كأنه يقول "الآب صنعنى جسداً لكى أصير إنساناً، حتى يظهر من هذا أيضاً أنه ليس "عملاً"، بل هو "مولود". لأنه كما أن من يدخل إلى المنزل لا يعتبر جزءاً من المنزل، بل هو مختلف عن المنزل، هكذا من يُخلق من أجل الأعمال فإنه بالطبيعة مغاير للأعمال.

لأنه لو كان كلمة الله "عملاً" – وفقاً لمعتقداتكم أيها الآريوسيون فبأية "حكمة" إذن وبأية "يد" قد وُجد هو أيضاً؟ لأن كل الكائنات قد وُجدت بيد الله وحكمته. فإن الله نفسه يقول "كل هذه صنعتها يدى"[69]. وداود يرتل قائلاً: "منذ البدء يارب أسست الأرض والسموات هى عمل يديك"[70]. ويقول ايضاً فى المزمور المئة والثانى والأربعين: "تذكرت أياماً قديمة، تأملت فى جميع أعمالك، بصنائع يديك كنت أتأمل"[71]. إذن فإن كانت يد الله هى التى صنعت الصنائع، وقد كُتِب: "كل الأشياء قد صارت بالكلمة وبغيره لم يكن شئ مما كان"[72]، وأيضاً "رب واحد يسوع المسيح الذى به جميع الأشياء"[73]، وأيضاً "فيه يقول الكل"[74]، فإنه من الواضح أن الابن لا يمكن أن يكون "عملاً" ولكنه هو يد الله وحكمته. وقد عرف هذا الذين صاروا شهوداً فى بابل أى حنانيا وعزاريا وميصائيل، وهم يدحضون الكفر الآريوسى لأنهم قالوا: "باركى الرب يا جميع أعمال الرب"[75]. وقد أعتبروا كل ما فى السماء وعلى الأرض والخليقة جمعاء أنها "أعمال" أما الابن فلم يذكروه بين الأعمال لأنهم لم يقولوا "بارك أيها الكلمة وسبحى أيتها الحكمة". وهذا يوضح أن كل الأشياء غيرهما تسبح وهى "أعمال" أما الابن فلم يذكروه بين الأعمال لأنهم لم يقولوا "بارك أيها الكلمة وسبحى أيتها الحكمة". وهذا يوضح أن كل الأشياء غيرهما تسبح وهى "أعمال"، أما الكلمة فهو ليس "عملاً" ولا ينتمى إلى

---

[69] اش 2:66.
[70] مز 25:102.
[71] مز 5:143 (142 سبعينية).
[72] أنظر يو 3:1.
[73] 1 كو 6:8.
[74] كو 17:1.
[75] دا 57:3 (سبعينية).

الأشياء التى تسبح، بل هو مُسبَّح مع الآب ومعبود ويُعترف به إلهاً لأنه هو كلمة الآب وحكمته وهــو خالق "الأعمال". وقد قال الروح هذا أيضاً فى المزامير بتمييز بديع للغاية: "لأن كلمة الرب مستقيمة وكل أعماله موثوق بها"[76]، كما يقول أيضاً فى مزمور آخر "ما أعظم أعمالك يارب، كلها صــنعتها بحكمة"[77].

72- فلو كان الكلمة "عملاً" فإنه يكون قد وُجد بواسطة الحكمة، ولمــا ميــزه الكتــاب عــن "الأعمال"، ولما سمى الكتاب تلك "أعمالاً" بينما يبشر به هو أنه كلمة الله وحكمته الذاتيــة. أمــا الآن فإن الكتاب إذ يميزه عن "الأعمال" فإنه يوضح أن "الحكمة" هى خالقة "الأعمال" وهى ليست "عملاً". ونفس هذا التمييز قد استخدمه بولس عندما كتب إلى العبرانيين: "لأن كلمة الله حّى وفعَّال، وأمــضى من كل سيف ذى حدين، وخارق إلى مفرق النفس والروح والمفاصل والمخاخ ومميز لأفكار القلــب ونياته، وليست خليقة غير ظاهرة أمامه، بل كل شئ عريان ومكشوف أمام عينىّ ذاك الذى تقدم لــه الحساب"[78]. لأنه ها هو يدعو الكائنات "خليقة" أماالابن فيعرفه أنه "كلمة الله" الذى هو مختلف عــن المخلوقات. وهو يقول أيضاً: "كل شئ عريان ومكشوف أما عينّى ذاك الذى نقدم له الحساب"، وهذا يعنى أنه غير الكائنات.

لهذا إذن فهو الذى يدين، أما كل واحد من الكائنات فهو مسئول أن يقدم حساباً أمامه. وهكــذا فإن كل الخليقة تئن معاً من أجل أن تتحرر من عبودية الفساد[79]، وبهذا يظهر أن الابن هــو غيــر المخلوقات لأنه لو كان مخلوقاً لكان واحداً من أولئك الذين يئنون ويحتاج إلى مــن يعطيــه التبنــى ويحرره أيضاً مع الكائنات الأخرى. فإن كانت كل الخليقة تئن معاً من أجــل التحــررمن عبوديــة الفساد، إلا أن الابن ليس من بين الذين يئنون ولا من بين الذين يحتاجون إلى الحرية، بل هو الــذى يعطى التبنى والحرية للجميع كما قال لليهود فى تلك الأيام: "العبد لا يبقى فى البيت إلى الأبــد، أمــا الابن فيبقى إلى الأبد. فإن حرركم الابن فبالحقيقة تكونون أحراراً"[80]. فمن ذلك يــصير واضــحاً أكثر من النور أن كلمة الله ليس مخلوقاً، بل هو ابن الآب الحقيقى الأصيل بالطبيعة.

---

[76] مز 4:33 (سبعينية).
[77] مز 24:104.
[78] عب 12:4،13.
[79] انظر رو 21:8،22.
[80] يو 35:8،36.

إذن فيما يتعلق بالعبارة "الرب خلقنى أول الطرق"، وإن كنا تناولناها بإيجاز فإن هـذا يكفـى كما أعتقد ليعطى مادة للعارفين لكى يعدوا ردوداص على البدعة الآريوسية. ولكـن عنـدما قـرأ الهراطقة الآية المكتوب بعدها: "أسسنى قبل أن يكون الدهر"[81]، أسأوا التفكير بصوصها وظنوا أنه يشير بها إلى ألوهية الكلمة، وليس إلى حضوره الجسدى لذا فمن الضرورى أن نشرح هـذه الآيـة لكى نثبت ضلالهم.

الفصل الثانى والعشرون

شرح نصوص: سادساً : أمثال 8:22-30

(81) أم 23:8.

"أسسنى قبل الدهر"

73- مكتوب "بالحكمة أسس الله الأرض"[1]. فإن كانت الأرض إذن قد تأسست بالحكمة فكيف تأسس هذا الذى أسسها؟. ولكن هذا النص قد قيل بأسلوب الأمثال. ويجب أن نبحث عن المقصود من هذا لكى نعرف أن الله خلق الأرض واسسها بالحكمة لكى تكون ثابتة وطيدة وتظل باقية. والحكمة نفسها تأسست لأجلنا لكى تصير بداية وأساس خليقتنا الجديدة وتجديدنا. وهنا أيضاً لا يقول فى هذه النصوص أنه "قبل الدهر (العالم) قد صنعنى كلمة أو إباً لكى لا يبدو أن له بداية صنع، فقبل كل شئ يجب أن نبحث إن كان هو إبناً وأن نفتش الكتب بخصوص هذا الأمر. فهذا ما أجاب به بطرس حينما سئل الرسل، قائلاً: "أنت هو المسيح إبن الله الحى"[2]. فإن أب الهرطقة الأريوسية[3] سأل هذا السؤال أيضاً فى البداية: "إن كنت ابن الله؟"[4] لأنه عرف أن هذا هو الحق وأساس إيماننا، وأنه ان كان هو الإبن فيكون هذا هو نهاية حكم الشيطان الاستبدادى، أما إن كان مخلوقاً فإنه يكون واحداً من ذري أدم الذى خدعه الشيطان، وبذلك فلا يكون لديه داعٍ لأى اكتراث.

وكان يهود ذلك الزمان ساخطين لأنه دعا نفسه إبن الله وكان يقول أن الله أبوه. لأنه لو كان قد دعا نفسه واحداً من بين المخلوقات أو لو كان قد قال "إنى مصنوع" لما اندهشوا وهم يسمعون ولما ظنوا أن هذه الأقوال تجديف، ما داموا يعرفون أن الملائكة كانت تظهر لآبائهم أيضاً. ولكن حينما دعا نفسه إبناً بدأوا يعتبرون أن هذا اللقب لم يكن يميز المخلوق بل يميز الألوهية والطبيعة الأبوية.

74- وكان ينبغى على الأريوسيين – محاكاة لأبيهم الشيطان – أن يبحثوا هذا الأمر بدقة، لو كان قد قال "أسسنى كلمة أو إبناً"، وأن يفكروا كما يفكرون. ولكن إن لم يكن قد قال هكذا فلا ينبغى أن يبتدعو لأنفسهم أموراً لا وجود لها. لأنه لم يقل "قبل الدهر أسسنى كلمة أو ابناً" بل قال ببساطة "أسسنى" لكى يوضح – كما قلت – أنه يقول هذا بأمثال ليس عن نفسه بل عن هؤلاء الذين يُبنون فوقه. ولان الرسول قد عرف هذا لذا فإنه يكتب "لا يستطيع أحد أن يصنع أساساً آخر غير الذى

[1] ام 19:3.
[2] مت 16:16.
[3] ابو الهرطقة الأريوسية هو الشيطان.
[4] مت 6:4.

وضع الذى هو يسوع المسيح"[5] وأيضاً "فلينظر كل واحد كيف يبنى عليه"[6]. ومن الضرورى أن يكون الأساس مماثلاً لتلك الأشياء التى تبنى عليه حتى يمكنها أن تلتئم معه وتتحد به. ولكونه الكلمة، فإنه من حيث كونه كلمة حقاً فلا يوجد هناك من يماثلونه حتى يمكن أن يتحدوا معه – وذلك لأنه وحيد الجنس، ولكن بصيرورته إنساناً فقد صار له مماثلون وهم الذين إرتدى جسدهم المماثل لجسده. وتبعاً لذلك فإنه "تأسس" بحسب بشريته لكى يمكننا نحن أيضاً أن نُبنى فوقه كحجارة كريمة ونصير هكيلاً للروح القدس الساكن فينا. وكما أنه هو أساس حقاً، فنكون نحن الحجارة التى تبنى عليه وأيضاً يكون هو الكرمة ونصير نحن أغصانه ليس بحسب جوهر اللاهوت – لأن هذا مستحيل حقاً – بل بحسب بشريته، لأن الأغصان يلزم أن تكون مشابهة للكرمة، حيث أننا نحن مشابهون له بحسب الجسد.

وأيضاً حيث أن الهراطقة يفكرون بطريقة بشرية فمن الملائم أن ندحض أقوالهم بأمثلة بشرية. فهو لم يقل "قد جعلنى أساساً" لكى لا يجدوا فى هذا القول حجة وقحة للكفر زاعمين أنه منوع وأن له بداية وجود، بل قال أنه "أسسنى". فالذى يُؤسس إنما يُؤسس بسبب الحجارة التى توضع فوقه وهذا يحدث ليس كيفما إتفق، بل بنقل الحجارة من جبل أولاً ثم بعد ذلك توضع فى عمق الأرض. وطالما كانت الحجارة موجودة فى الجبل فهى لا تكون قد تأسست بعد، إلا عندما تستدعى الحاجة فيتم نقلها وتوضع فى عمق الأرض. وعندئذ لو كانت تستطيع أن تتكلم لقالت "الآن أسسنى هذا الذى نقلنى من الجبل إلى هنا". إذن فالرب عندما "أسس" لم يكن هذا هو بداية وجوده (لأنه قبل التأسيس كان كلمة)، لكن عندما لبس جسدنا الذى أخذه كقطعة من جسد مريم عندئذ يقول "أسسنى" كما لو كان قد قال: "لكونى كلمة فقد ألبسنى جسداً ترابياً". لأنه هكذا تأسس من أجلنا، آخذاً ما يخصنا على عاتقه. لكى بإتحادنا معه فى الجسد، وارتباطنا به بسبب مشابهة الجسد نبقى غير مائتين وغير قابلين للفساد وبه نصل إلى إنسان كامل[7].

75- أما الكلمات: "قبل الدهر" و"قبل أن يصنع الأرض" و"قبل أن تُرسى الجبال"[8] فلا ينبغى لأحد أن ينزعج بسببها، لأنه ربطها بتناسق تام مع لفظ "أسس" ولفظ "خلق". لأن هذا ينسجم أيضاً مع التدبير بحسب الجسد. لأنه رغم أن النعمة التى صارت نحونا من المخلص قد ظهرت كما قال

---

(5) 1كو 11:3.
(6) 1كو 10:3.
(7) انظر اف 13:4.
(8) أم 23:8،25.

الرسول[9] وقد حدث هذا عندما أقام بيننا، إلا أن هذه النعمة كانت قد أعدت قبل أن يخلقنا بل حتـــى من قبل أن يخلق العالم. والسبب فى هذا صالح ومذهل. فلم يكن من اللائق أن يفكر الله بخـــصوصنا بعد أن خلقنا لكى لا يظهر أنه يجهل الأمور التى تتعلق بنا. فإله الجميع إذن – عندما خلنـــا بكلمتـــه الذاتى ولأنه كان يعرف أمورنا أكثر منا ويعرف مقدماً أننا رغم أنه قـــد خلقنـــا صـــالحين إلا أننـــا سنكون فيما بعد مخالفين للوصية، وأننا سنطرد من الجنة بسبب العصيان – ولأنه هو محب البـــشر وصالح فقد آعد من قبل تدبير خلاصنا بكلمته الذاتى – الذى به أيضاً خلقنا. لأننا حتى إن كنـــا قـــد خدعنا بواسطة الحية وسقطنا فلا نبقى أمواتاً كلية بل يصير لنا بالكلمة الفداء والخلاص الذى ســـبق إعداده لنا لكى نقوم من جديد ونظل غير مائتين، وذلك عندما "خُلِقَ" هو من أجلنـــا "بـــدء الطـــرق" وصار "بكر الخليقة" و "بكر إخوة" وقام "باكورة الأموات".

ان بولس الرسول المغبوط يعلّم بهذا – كتفسير للنص الذى جاء فى الأمثـــال: "قبـــل الـــدهر" و"قبل أن تكون الأرض"، وذلك عندما كتب إلى تيموثاوس قائلاً: "إشترك فى إحتمال المشقات لأجل الإنجيل بحسب قوة الله الذى خلصنا ودعانا دعوة مقدسة، لا بمقتضى أعمالنا بل بمقتـــضى القـــصد والنعمة التى أعطيت لنا فى المسيح قبل الأزمة الأزلية، وإنما أظهرت الآن بظهور مخلصنا يـــسوع المسيح الذى أبطل الموت وأنار الحياة"[10]. بل وقال إلى أهل أفسس "مبارك الله أبـــو ربنـــا يـــسوع المسيح الذى باركنا بكل بركة روحية فى السماويات فى المسيح يسوع. كما إختارنا فيه قبل تأســـيس العالم لنكون قدامه فى المحبة قديسين وبلا لوم. إذ سبق فعيننا للتبنى بيسوع المسيح لنفسه"[11].

76- وكيف اختارنا قبل أن نُخلَق، إن لم نكن مُمَثَلين فيه من قبل كما قال هو نفسه؟ وعموما، كيف سبق فعيننا للتبنى قبل أن يخلق البشر إن لم يكن الإبن نفسه قد "تأسس قبل الدهر" أخـــذاً علـــى عاتقه تدبير خلاصنا؟ أو كيف يصيف الرسول قائلاً: "نلنا نصيباً معينين سابقاً"[12] لو لم يكن الـــرب نفسه قد تأسس قبل الدهر"، حتى يكون له قصد من أجلنا أن يأخذ على عاتقه نصيب الدينونة الكامـــل من أجلنا عن طريق الجسد وبهذا نكون نحن مُتبنُون فيه؟ وكيف حصلنا على النعمة "قبـــل الأزمنـــة الأزلية" بينما لم نكن قد خُلقنا بعد، بل خلقنا فى الزمن، لو أن النعمة التى وصلت إلينا لم تكن مودعة فى المسيح؟ لهذا ففى الدينونة عندما ينال كل واحد بحسب عمله، يقول: "تعالوا يا مباركى أبى رثـــوا

---

(9) انظر تيطس 11:2.
(10) 2 تيمو 1:8-10.
(11) افسس 1:3-5.
(12) أفسس 11:1.

الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم"[13]. كيف إذن أو بواسطة من أُعد الملكوت قبل أن يخلقنا، إن لم يكن بواسطة الرب الذى "تأسس قبل الدهر" لأجل هذا الغرض، لكى ببنياننا عليه كحجارة ملتئمة، نشترك فى الحياة والنعمة الممنوحتين معه؟ ولقد حدث هذا مثلما يحدث عموماً بإستقامة لمن يفكر بتقوى. وذلك لكى نستطيع أن نحيا إلى الأبد – كما سبق أن قلت – ما دمنا قد قمنا من الموت المؤقت. وهذا لم يكن فى إمكاننا أصلاً حيث أننا بشر من تراب، لو لم يكن رجاء الحياة والخلاص قد أعد فى المسيح من "قبل الدهر". إذن فمن الإنصاف، إذ إنحدر الكلمة إلى جسدنا و "وخُلق فيه أول الطرق من أجل أعماله" فإنه تأسس تماماً حسب مشيئة الآب التى كانت فيه كما قيل: "قبل الدهر" "وقبل أن تكون الأرض" و "قبل أن ترسى الجبال" و"قبل تدفق الينابيع"[14] لكى عندما تزول الأرض والجبال والطبيعة المنظورة فنحن لا نعتق ونبلو مثل هذه المخلوقات، بل سنتمكن أن نحيا بعدها، إذ قبل أن توجد هذه الأشياء قد أُعد لنا حياة وبركة روحية بواسطة الكلمة نفسه حسب الإختيار. لأنه هكذا سيكون لنا ليس حياة مؤقتة بل نبقى أحياء فى المسيح بعد هذه الأشياء، إذ أن حياتنا كانت قد تأسست وأعدت بالمسيح يسوع قبل هذه الأشياء.

77- ولم يكن من اللائق إذن أن نؤسس حياتنا بأى طريقة أخرى سوى أن تؤسس فى الرب الذى هو كائن منذ الأزل، والذى به قد خُلقت العالمين، لكى نستطيع نحن أيضاً أن نرث حياة أبدية إذ أن هذه الحياة كائنة فيه. ولأن الله صالح، وهو صالح على الدوام وهو يعرف طبيعتنا الضعيفة التى تحتاج إلى معونته وخلاصه، لذا فقد خطط هذا. وذلك مثلما لو كان مهندس حكيماً يريد أن يبنى منزلاً فإنه يخطط فى نفس الوقت كيفيه تجديده مرة أخرى لو تدمر يوماً ما بعد أن يتم بناؤه، وهو يعد لهذا من قبل عندما يخطط، ويعطى للقائم على العمل الإستعدادات اللازمة للتجديد، وهكذا يكون هناك استعداد مسبق للتجديد قبل بناء المنزل. وبنفس الطريقة فإن تجديد خلاصنا قد تأسس فى المسيح قبلنا، لكى يمكن إعادة خلقنا من جديد فيه، فالإرادة والتخطيط قد أعداً منذ الأزل، أما العمل فقد تحقق عندما إستدعت الحاجة وجاء المخلص إلى العالم. لأن الرب نفسه سيكون فى السماء من أجلنا أجمعين وسيأخذنا معه إلى الحياة الأبدية.

هذا إذن يكفى لكى يوضح أن كلمة الله ليس بمخلوق، بل إن العبارة لها معنى مستقيم، وبما أنه عند إستقصاء معنى هذه العبارة يتضح أن لها معنى مستقيماً من جميع وجهات النظر إذن يلزم

---

(13) مت 34:25.

(14) انظر ام 22:8 – 25.

أن نتحدث بتوسع فى هذا المعنى، لعل الأغبياء يخجلون من كثرة كلامنا. فهم فى حاجة من جديد لما سبق أن قيل لأن جوهر الموضوع يدور حول نفس المثل ونفس الحكمة، فالكلمة لم يقل أنه هو نفسه مخلوق بالطبيعة بل قال فى الأمثال: "الرب خلقنى" ومن الواضح أن هذا القول له معنى غير صريح ولكنه يشير إلى أمر مستتر يمكننا أن نكشف عنه بإزاحة الغطاء عن المثل. لأنه من ذا الذى عنــدما يسمع الحكمة الخالقة تقول: "الرب خلقنى أول طرقه"، ولا يبحث فى الحال عن مغزى هــذا القــول، لأنه يفكر متمعناً كيف يمكن أن الخالق يُخلق؟ ومن عندما يسمع ابن الله الوحيد الجنس يقول أنه "قــد خُلِقَ أول الطرق"، لا يفتش عن معنى هذا، لأنه يعجب كيف أن الإبن الوحيد الجنس يمكن أن يكــون الأول لآخرين كثيرين؟ أنه لحقاً لغز. "الرجل ذو الفهم" "سيفهم المثل والحــديث الغــامض وأقــوال الحكماء وألغازهم"[15].

78- والآن فإن ابن الله الوحيد وحكمته المطلقة هو خالق وبارئ جميع الكائنات لأنه مكتــوب "بحكمة صنعت كل الأشياء"، "ملآنة الأرض بخليقتك"[16] حتى أن المخلوقات لا توجد فقط بل يكون وجودها صالحاً. ولهذا سُرَّ الله أن تنحدر حكمته إلى مستوى الخليقة حتى تطبع صورتها بشكل مــا على الجميع معاً وعلى كل منها على حدة، حتى يتضح أن المخلوقات متصفة بالحكمة وهى أعمــال الله الجديرة به. لأنه كما أن كلمتنا هى صورة الكلمة الذى هو إبن الله، هكــذا أيــضاً فــإن الحكمــة الموجودة فينا هى صورة الابن الذى هو الحكمة التى بها ينبغى أن يكون لنا المعرفة والفهم ونــصير قابلين للحكمة الخالقة، وبواسطة هذه الحكمة نستطيع أن نعرف أباها. لأنه مكتوب: "من له الإبن لــه الآب ايضاً"[17] و "من يقبلنى يقبل الذى أرسلنى"[18] وحيث أنه قد خلق فينا نموذجاً مثل هذا للحكمة، وهو موجود أيضاً فى جميع "الأعمال"، فمن الطبيعى أن يأخذ الحكمة الحقيقى والخالق مــا يخــتص بنموذجه ويقول: "الرب خلقنى لأجل أعماله".

لأن الأشياء التى تقولها الحكمة التى فى داخلنا، هى التى يقولها الرب نفسه كأنها مــن ذاتــه هو. وليس لكونه هو غير مخلوق – إذ أنه هو الخالق – ولكن بسبب صورته المخلوقة فى "الأعمــال" فإنه يقول هذا كما لو كان قد قيل عنه. وكما قال الرب نفسه "من يقبلكم يقبلنى" وبــسبب أن صــورته موجودة فينا – فرغم أنه ليس من بين المخلوقات، إلا أنه بسبب ن صورته ونموذجه قــد خلقــا فــى

---

(15) أم 6:1:5.
(16) مز 24:104 (سبعينية).
(17) 1يو 23:2.
(18) متى 40:10.

"الأعمال"، فإنه يقول كأنه يتكلم عن نفسه: "الرب خلقنى أول طرقه لأجل أعماله". ولهذا فقد صار نموذج الحكمة هذا فى "الأعمال"، لكى بواسطتها يعرف العالم الكلمة خالقه وبواسطته يعرف الآب كما سبق أن قلت. وهذا ما قاله بولس "لأن معرفة الله ظاهرة فيهم لأن الله أظهرها لهم لأن أموره غير المنظورة ترى بوضوح منذ خلق العالم مدركة بالمصنوعات"[19]. لذلك فإن الكلمة ليس مخلوقاً بالجوهر ولكن القول الذى فى الأمثال إنما يشير إلى ما هو موجود بداخلنا نحن والذى يسمى حكمة.

79- وان كانوا يرفضون الإيمان، حتى بعد هذا الكلام، فليقولوا لنا إن كانت هناك أية حكمة موجودة فى المخلوقات أم أن المخلوقات ليس فيها أية حكمة وإن لم تكن هناك حكمة فكيف يلوم الرسول قائلاً: "لأنه إذ كان بحكمة الله لم يعرف العالم الله بالحكمة"[20]. وإن لم تكن هناك حكمة فكيف توجد حكمات كثيرة فى الكتاب المقدس[21]؟ لأن "الحكيم يخشى ويحيد عن الشر"[22] و "بالحكمة يبنى البيت"[23] وجاء فى سفر الجامعة: "حكمة الانسان تنير وجهه"[24] وهو يوبخ المتهورين قائلاً: "لا تقل، ماذا حدث، لماذا كانت الأيام السابقة خيراً من هذه، لأنك لا تسأل بحكمة عن هذا"[25]. وإن كانت الحكمة موجودة كما قال ابن سيراخ: "وسكبها على جميع أعماله فهى مع كل ذى جسد على حسب عطيته وقد منحها للذين أحبوه"[26]، فإن مثل هذا الانسكاب لا يكون سمة خاصة لجوهر الحكمة المطلقة والوحيدة الجنس بل هو سمة لتلك الحكمة التى صُورت فى العالم بدقة. فلماذا يكون غير مُصَدّق ان كانت الحكمة الخالقة الحقيقية – التى هى نموذج الحكمة والمعرفة المنسكبة فى العالم – تتحدث عن نفسها وتقول: "الرب خلقنى من أجل أعماله"؟ لأن الحكمة الموجودة فى العالم ليست خالقة بل هى الحكمة المخلوقة داخل الأعمال، تلك الحكمة التى بها: "السموات تحدّث بمجد الله والفلك يخبر بعمل يديه"[27]. أما الناس فإن كانوا يحملون هذه الحكمة بداخلهم فإنهم سيدركون حكمة الله الحقيقية، ويعرفون أنهم قد تشكّلوا بحق على صورة الله.

---

(19) رو 1:19،20.
(20) 1كو 1:21.
(21) سفر الحكمة 24:6 (سبعينية).
(22) أم 16:14.
(23) أم 3:24.
(24) جا 1:8.
(25) جا 10:7.
(26) إبن سيراخ 9:1،10.
(27) مز 1:19.

ومثلما لو كان ابن أحد الملوك ينشئ مدينة – بإرادة والده – فإنه ينقش إسمه على كل الأعمال التى يجرى إنشاؤها، وذلك من أجل الأمن لكى تحفظ الأعمال بسبب ظهور إسمه فى كل عمل ولكى يستطيعوا أن يتذكروه من إسمه. وعندما يفرغون من إنشاء المدينة، فإذا سأل أحد عن المدينة وكيف أنشئت فإنه سيجيب: "لقد أنشئت بإمان وفقاً لإرادة أبى، وخُطِطَ لها بدقة فى كل عمل، وإسمى قد خُلِقَ فى الأعمال". وعندما يقول هذا فإنه لا يعنى ان جوهره قد خلق بل إنطباع صورته من خلال إسمه.

وعلى نفس المنوال إذ نطبق على المثال، فإن الحكمة الحقيقية تجيب على المندهشين من الحكمة الموجودة داخل الخليقة قائلة: "الرب خلقنى من أجل أعماله" لأن "إنطباع الصورة الموجودة فيها هو إنطباع صورتى، ولأجل ذلك فأنا قد تنازلت إلى الخليقة".

80- ومرة أخرى لا ينبغى أن يدهش أحد لو أن الابن تحدث عن النموذج المطبوع فينا كما لو كان يتحدث عن نفسه (لأن تكرار نفس الكلام لا يجب أن يبعث على الضجر والملل)، حيث أن شاول حينما كان يضطهد الكنيسة التى كان يوجد فيها نموذجه وصورته فإن (الكلمة) تحدث كما لو كان هو المضطَّهد قائلاً: "شاول لماذا تضطهدنى"[28]. لذلك (كما سبق القول)، لو كان نموذج الحكمة ذاته الموجود فى الأعمال هو الذى قال "الرب خلقنى لأجل الأعمال" لما اندهش أحد. وهكذا فإن كان الحكمة الحقيقى الخالق وكلمة الله الوحيد يتحدث عن صورته كما لو كان يتحدث عن ذاته بقوله "الرب خلقنى لأجل الأعمال"، فلا يجب أن يجهل أحد أن المقصود هو الحكمة المخلوقة فى العالم وفى الأعمال، ويظن أن لفظ "خلق" قد قيل عن جوهر الحكمة المطلق كى لا يبدو بمزجه الخمر بالماء[29] أنه يسلب الحقيقة. فالحكمة نفسها جابلة وخالقة، ولكن نموذجها مخلوق بداخل الأعمال كنموذج للصورة نفسها تماماً، وهو يقول "أول الطرق" حيث أن مثل هذه الحكمة صارت كنوع من البداية وكمرشد إلى معرفة الله. فلو أن أحداً سار فى أول هذا الطريق حافظاً إياه بخوف الله (كما قال سليمان: "بدء الحكمة مخافة الرب"[30]) فإنه عندما يتقدم بالفكر مدركاً عمل الحكمة الخالقة الذى فى الخلق، سيدرك بها أباها أيضاً كما قال الرب نفسه: "الذى رآنى فقد رأى الآب"[31]

---

[28] أع 9:4.
[29] انظر اش 22:1.
[30] أم 7:1.
[31] يو 9:14.

وكما كتب يوحنا: "من يعترف بالإبن فله الآب أيضاً"[32]. والأبن يقول "قبــل الــدهر أســسنى"[33]، حيث أن الأعمال تبقى فى نموذجها راسخة دائماً. ولئلا عندما يسمع أحد عن الحكمة المخلوقــة فــى الأعمال يظن أن الحكمة الحقيقية إبن الله هو مخلوق بالطبيعة، فإنه يضيف بالضرورة "قبل أن تكون الجبال" و "قبل أن تكون الأرض" و "قبل المياه" و "قبل كل الجبال ولدنى"[34] وإذ يشير بهذه إلى كــل الخليقة فإنه يوضح بقوله "قبل كل خليقة" أنه لم يُخلق بحسب الجوهر مع الأعمال. لأنه لو كــان قــد خُلق من أجل الأعمال وهو الموجود قبل الأعمال، فواضح أنه موجود قبل أن يُخلق فهو إذن لــيس مخلوقاً بحسب الطبيعة والجوهر، بل كما أضاف هو نفسه أنه مولود. أما فيما يختلف "المخلوق" عن "المولود" وكيف يتميز عنه بحسب الطبيعة فهذا قد سبق بيانه من قبل.

81- وحيث أنه أضاف قائلاً: "عندما أعد السموات كنت أنا فى نفس الوقت معه"[35] ينبغــى أن نعرف أنه لم يقل هذا كما لو أن الآب أعد السماء أو السحب العليا بدون الحكمة، لأنه لا ريــب أن جميع الأشياء قد خلقت بالحكمة، وبغيرها لم يكن شئ ما. وما قاله يعنى هذا أن "كــل الأشــياء قــد صارت بى وبواسطتى، وعندما صار هناك إحتياج أن تُخلق الحكمة لأجل الأعمــال، فــإنى وأنــا موجود مع الآب حسب الجوهر، لكن بالتنازل إلى المخلوقات قد طبعت صورتى علــى الأعمــال، حتى يكون العالم كأنه فى جسد واحد غير متمرد بل يكون متوافقاً مع نفسه". فكــل الــذين يتــأملون المخلوقات بفكر مستقيم بحسب الحكمة المعطاه لهم يستطيعون أن يقولــوا: "كــل الأشــياء تثبــت بتدبيرك"[36]. أما الذين يستهينون بهذا الأمر فيلزم أن يسمعوا: "وبينما هم يزعمــون أنهــم حكمــاء صاروا جهلاء"[37] لأن: "معرفة الله ظاهرة فيهم لأن الله أظهرها لهم، لأن أموره غيــر المنظــورة ترى بوضوح منذ خلق العالم مدركة بالمصنوعات قدرته السرمدية ولاهوته حتى أنهم بــلا عــذر، لأنهم لما عرفوا الله لم يمجدوه كإله"[38] بل "عبدو المخلوق دون خالق الكل الذى هو مبــارك إلــى الأبد. آمين"[39]. وهم بالتأكيد سيخجلون عندما يسمعون: "لأنه إذ كان (العالم) فى حكمة الله (وفقا لما

[32] 1يو 23:2.
[33] أم 23:8 سبعينية.
[34] انظر امثال 23:8-25.
[35] أم 27:8 سبعينية.
[36] مز 91:119 سبعينية.
[37] رو 22:1.
[38] رو 19:1-21.
[39] رو 25:1.

شرحناه سابقاً) لم يعرف الله بالحكمة، إستحسن الله أن يخلص المؤمنين بجهالة الكـرازة"[40] لأن الله لا يريد بعد – مثلما حدث فى العصور السابقة – أن يُعرف عـن طريـق صـورة وظـل الحكمـة الموجودة فى المخلوقات بل جعل الحكمة الحقيقية ذاتها تتخذ جسداً وتصير إنـساناً وتعـانى مـوت الصليب، لكى يتمكن جميع الذين يؤمنون أن يخلصوا بالإيمان به. وطبعاً فإن الحكمة ذاتها هى التـى أظهرت نفسها من قبل فى صورتها الموجودة فى المخلوقات، والتى يقال أنها قد خُلِقت، وهكذا فقـد أظهرت أباها أيضاً بواسطة ذاتها. وفيما بعد فإن نفس الحكمة التى هى الكلمة "قد صار جسداً" كمـا قال يوحنا[41].وبعد إبطال الموت وتخليص جنسنا فإنه أكثر من ذلك أظهر نفسه وأظهر أبـاه أيـضاً من خلال نفسه بقوله: "اعط هؤلاء لكى يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك ويـسوع المـسيح الـذى أرسلته"[42].

82- إذن فكل الأرض إمتلأت بمعرفته، لأن معرفة الآب من خلال الإبن ومعرفة الإبن مـن الآب هى معرفة واحدة. والآب يفرح بالإبن وبهذا الفرح عينه يبتهج الإبن بالآب قائلاً: "كنـت أنـا موضع فرح، وكنت أفرح كل يوم قدامه"[43]. وهذا يبرهن مرة أخرى أن الإبن هو من ذات جـوهر الآب وليس غريباً عنه. فهو إذن لم يوجد من أجلنا كما يدعى الكافرون، وهو ليس مـن العـدم، لأن الله لم يتخذ لنفسه موضوعاً للفرح من خارجه، بل من الواضح أن هذه الكلمات هى عن ذاك الـذى هو خاص به ومماثل له. فمتى إذن لم يكن الآب يفرح؟ لأنه إن كان يفرح دائماً إذن فلابـد أن ذلـك الذى كان يفرح به كان موجوداً دائماً. فبماذا يفرح الآب إلا بأن يرى نفسه فى صورته التـى هـى كلمته؟ وحتى إن كان يبتهج ببنى البشر عندما أكمل خلق المسكونة كما كتب فى الأمثال[44] نفـسها، ولكن هذا أيضا له معنى مناسب، لأنه إبتهج ليس لأن الفرح أضيف إليـه، بـل أيـضاً لأنـه رأى الأعمال صائرة حسب صورته، ولهذا يكون فرح الله هو بسبب صورته. وايضاً كيف يبتهج الإبـن إلا وهو يرى نفسه فى الآب؟ فهذا مماثل لقوله: "من رآنى فقد رأى الآب"[45]، "أنا فـى الآب والآب فىّ"[46].

---

[40] 1كو 21:1.
[41] انظر يو 14:1.
[42] انظر يو 3:17.
[43] أم 30:8 سبعينية.
[44] أم 31:8.
[45] يو 6:14.
[46] يو 10:14.

إذن يا أعداء المسيح، لقد ظهر أن مجادلتكم باطلة من جميع النواحى، وعبثاً عرضتم فى تبـــاه أراء غير مستقيمة وأذعتموها فى كل مكان عن القول "الرب خلقنى أول طرقه" وأسأتم فهم معنـــاه، وبدلاً من فكر سليمان أعلنتم بدعتكم. وها هو رأيكم يتضح أنه خيال فقط أما قول سفر الأمثال وكـــل ما سبق أن شرنا إليه من أقوال، فهو يبرهن أن الإبن ليس مخلوقاً بحسب الطبيعة والجوهر، بل هـــو مولود الآب الذاتى وهو حكمته كلمته الحقيقى، و "كل شئ به كان، وبغيره لم يكن شئ مما كان"[47].

---

[47] يو 3:1.